مساهمات علمائنا الأوائل في حقل الدراسات السامية استطلاع وتحليل في ضوء المنهج التاريخي المقارن

د. عبدالحميد الأقطش

قسم اللغة العربية ، جامعة اليرموك ، إربد

تاريخ تقديم البحث ١٣ / ٤ / ١٩٩٤ تاريخ قبوله للنشر ١٨ / ٣ / ١٩٩٥

ملخص

يناقش هذا البحث المساهمات التي اضطلع بها أئمة العربية القدامى في موضوع الدرس السامي، وذلك في شقين: شق استطلاعي معرفي، يهدف الى تقديم صورة واضحة عن الكمية والكيفية التي حظيت بها المسائل السامية في الدرس العربي القديم، وشق تحليلي نقدي، يهدف إلى تقييم ما خلفه لنا أولئك العلماء من مساهمات في هذا الحقل من الدراسات اللغوية، ذات الصبغة التاريخية المقارنة.

وبالإجمال فإن مساهمات العرب القدامى في هذا الحقل كانت ضئيلة من حيث الكم، وبدائية من حيث الكيف، ولكن تلك المساهمات تظل نافعة جداً في فهم المسيرة التطورية للدرس اللغوي العربي، وخصوصاً في مجال المرجعية السامية المقارنة.

ABESTRACT

The contributions of the National Arab Grammarians in the Semitic studies field

This paper disucussed the item of national Arab grammarians Contributions in the field of Semiticss as follows:-

A- Collecting their data from the original sources with classifying them according to quality and quantity.

B- To analyse the data from modern linguistic point of view.

C- As A conclusion, we can say that the Semitic knowledge of the ancient Arab grammarians was quite primitive, simple, and cannot be trusted as a a scientific truth. But it can be useful to be taken as a theme not literally. Moreover it can help us build a good view a about the historical lingustic heritage by Arab grammarions.

في القرابة التاريخية بين اللغات

اللغويات التاريخية من الموضوعات الحيوية، التي تجتذب في وقتنا الحاضر اهتمام العلماء، وتستثير هممهم، وتقدم لهم مادة خصبة للحوار والجدال. وأحياناً للمناكفة والخصام، ولم تعرف هذه اللغويات من حيث هي نظرية من نظريات البحث في اللغات إلا حديثاً، بأُخرة العقود الخاصة بالقرن الثامن عشر. وقد نجمت في البداية كعلم ثانوي عن علم البحث في النصوص القديمة، والأثريات والعاديات التي تركتها الأقوام السابقة، وذلك إثر اكتشاف العلماء الأوروبيين وجود صلات قرابة بارزة وغير منكورة، بين لغاتهم في القارة الأوروبية، ولغات الهنود في القارة الآسيوية، فخفّوا لبيانها، ومن بعد توسع العلم وتوطدت أركانه، وغدا فرعاً مهماً من أفرع الدراسات اللغوية المعاصرة(١). وأهم العاديات القديمة التي حظيت بالعناية والبحث كانت نصوص السنسكريتية الهندية، ونصوص الڤيدا الإيرانية، والنصوص الأدبية الكلاسيكية من مخلفات يونان وروما قبل الميلاد. وشاع في وسم هذا النوع من الدرس اللغوي مصطلح Philology «فيلولوجي» علم النصوص القديمة.

وثمة موضوعان رئيسيان اتجهت إليهما الأبحاث التطورية التاريخية التي حررها أولئك الفيلولوجيون الأوائل، فأما أحدهما فكان موجهاً وجهة تاريخية ميتافيزيقية تهدف إلى فهم حلقات التطور النظري للظاهرة اللغوية، في مسائل مثل: نشأة اللغة، وطفولتها، ونموها، وتروم الوصول الى اللغة الأقدم التي خرجت عنها كل اللغات، أو الى اللغة التي تحدث بها آدم في جنة عدن(٢). ولا شك أن الأبحاث في هذا الجانب مغرية لفضول العقل البشري، لأنها جزء من الأسئلة العامة التي يطرحها الذهن لفهم الأشياء من حوله، ولكنها أدخل في علوم الأساطير الغيبية منها في علم الألسنية. ولغويات القرن العشرين لم تعد تحفل بالبحث في مسائل من هذا القبيل، وهجرتها إلى البحث في نظام اللغة نفسها، في مظاهرها الحسية المتعلقة: بالأصوات والمباني والتراكيب(٣).

وأما ثاني موضوعات علم فيلولوجيا القرن الماضي، فكان موجهاً وجهة تاريخية عملية، تهدف إلى استنتاج علاقات تاريخية معينة، خصوصاً في مجال تصنيف اللغات، ومجال التغيرات التي مرت بها اللغات عبر الزمن. وأكثر العلماء الذين لهم مساهمات واضحة هنا هم الألمان أمثال: ياكوب جريم Jakob Grimm ت١٨٦٣م، وفرانزبوب، Franz Bopp ت١٨٦٧م، وأوجست شلايشر، August Schleichar ت١٨٩٥م، وكارل برجمان Karl Brugmann ت١٩١٩م.

وللعلماء اليوم منهجان في توزيع اللغات(٤)، وفق نظرية الأنساب اللغوية (Genealogisch)، أو الأنماط اللغوية (typologisch). والنظرية الأولى أكثر أهمية من الثانية، وعليها يُعوّل أكثر العلماء. ومن معتاد التوزيع فيها أن تُفرد اللغات على أفرع متشابكة كتشابك أفرع الشجرة، وأحياناً قليلة ربما أُفردت اللغات على دوائر متداخلة كتداخل الأمواج المائية. ومظهر الشجرة هو الأكثر رواجاً، ويكاد حالياً يكون هو الشائع، والمعترف به بين الدارسين.

وليس ثمة معتاد شكلي في توزيع اللغات وفق نظرية الأنماط، وجوهرها لا يسمح بذلك أصلاً، من حيث إنها تستند في الرؤية لا إلى الصلات القرابية بين اللغات، وإنما إلى ما بداخل اللغات ذاتها من علامات تركيبية بارزة، ونظرية الأنماط هذه اقترحها الألماني شليجل Schlegel عام ١٨١٨م. وهو يرى أن اللغات كلها يمكن أن تتوزع على الأنماط التركيبية الثلاثة الآتية: عازلة (Isollierenden)

وإلصاقية (Affigierenden) ومتصرفة (Flektierenden). وبحسب هذه النظرية يكون موقع العربية ومعها أخواتها السامية، ضمن الفئة الثالثة المتصرفة، شأن اليونانية واللاتينية، مع الجزم بأنها تدخل كذلك ضمن الفئتين الأوليين، وأما موقعية العربية، بحسب النظرية الأولى (نظرية الأنساب) فهو مهم في موضوع هذه الدراسة، ولذا نتركه قليلاً، ونتوقف إلى التقسيم التقليدي الذي عرفته البشرية أولاً، وظل متوارثاً فيها إلى أن محته أفكار لغويي القرن الثامن عشر وما تلاه.

فهناك عند اليهود ثلاثة إخوة أسسوا الإنسانية الجديدة التي نجت بعد الطوفان. تفرقوا في البلاد فتبلبلت ألسنتهم، وتنوعت أعراقهم البشرية، ومن قبل كانت الأرض كلها لساناً واحداً وشعباً واحداً، وحين ابتدأوا العمل بشي الطين، وصنع المدن، نزل عليهم الرب وقال «والآن لا يمتنع عليهم كل ما يَنْووْن أن يعملوه، هلمّ ننزل ونُبلبل لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض، فبددهم على وجه كل الأرض»[٥] والإخوة الثلاثة هم بزعم التوراة: سام وصار أباً للساميين، وحام وصار أباً للحاميين، ويافث وصار أباً للإيرانيين، وبحسب رواية التوراة يمكن تقريب مواطن السكنى لهؤلاء الإخوة المتقاسمين، بحيث يكون الساميون في العراق والشام وجزيرة العرب، ويكون الحاميون على ضفاف وادي النيل من مصر الى الحبشة، ويكون نسل يافث في مناطق الفرس والرومان واليونان.

ولا يخفى أن مثل هذا الأطلس الجغرافي للبشرية، يجعل العالم محصوراً فقط في حوض صغير جداً من مساحة الكرة الأرضية، هو حوض الشرق الأوسط. أو حوض ملتقى رؤوس القارات الثلاث (آسيا وأوروبا وأفريقيا)، وتبقى الأجزاء الأخرى من مساحة الأرض غير مشمولة بالتقسيم، كما لو كانت غير معمورة بالناس.

وقد يمكن أن يقال بأن التقسيم التوراتي مفصل أساساً على قدر الأقوام الذين كانوا معروفين لليهود آنذاك، ولو علموا أقواماً آخرين لتوسعوا في الأنساب، وفي الأماكن. وقد يكون هذا الزعم راجحاً حين نعرف أن الهنود القدماء قد قسموا الإنسانية الباقية بعد الطوفان أيضاً إلى ثلاثة أجناس[٦]، وهم الذين كانوا يحيطون بعالمهم: (الساميون والطورانيون والإيرانيون) فأدخلوا شعوب القفص وما وراء سيحون وجيحون بدل الأفارقة (الحاميين).

وعلى أية حال فإن هذا التوزيع الثلاثي للشعوب، قد فرغ من محتواه اليوم، وصار مجرد حلقة من حلقات تاريخ العلم في الموضوع دون زيادة، ولذا فليس لنا أن نطيل الوقوف عنده، ولنا أن نعاود ربط الكلام بتقسيم الشعوب وفق نظرية الأنساب، ونتوقف منها إلى توزيع الشعوب في منطقة الشرق الأدنى القديم: فهي التي لها علاقة بموضوع هذا البحث.

وقد لاحظ علماء المشرقيات في القرن الماضي وجود قرابات مشتركة: اجتماعية، وفكرية، ولغوية، وأيضاً انثروبولوجية بين المجموعات البشرية التي استوطنت هذه المنطقة منذ أقدم عصورها المعروفة، مما أكد لهم، أنها جميعاً لا بد متوارثة من نسالة واحدة، سابقة عليها جميعاً، ومن بعد عرض لتلك النسالة انقسام وتشعب، وظهرت فيها أمم ولغات ولهجات، وجرى عرف العلماء في وسم اللغة الأولى التي تكلم بها هؤلاء الأقوام بلقب «السامية الأم»، مع تأكيدهم الصريح بأن تلك الغة الأم ليست أكثر من تصور ذهني تستدعيه معطيات التطور اللغوي، ولا من سبيل إلى إعادة البناء الكامل لها ولو بالتقريب[٧]. وكان اللغوي الألماني شلوتزر Schlözer عام ١٧٨١م هو أول من وقع على هذا الاسم،

التقطة من التوراة من سفر أنساب الشعوب، ورفضه لغويون آخرون لأنه اسم لا يقوم أصلاً على أساس لغوي، فاقترح بعضهم اسم «اللغات السامية الحامية» وبعضهم اقترح اسم «اللغات الأفرو-آسيوية»، وهناك من اقترح اسم «اللغات الجزرية» وهذا المصطلح الأخير موجود عند العراقيين[٨]. ولكن الشهرة باقية مع التسمية الأولى، وهي بعد اصطلاح ولا مشاحة في الاصطلاح.

وفي البداية كان لقب (سامية) يطلق على أربع فصائل لغوية هي: الآرامية والعبرية والعربية والحبشية، وهي اللغات التي كان لها وجودها الحي على ألسنة الناس. وبعد سلسلة الاكتشافات الموفقة عن اللغات السامية المنقرضة، وعن اللهجات السامية الباقية، اتضحت صورة الساميات، على الوجه التالي[٩].

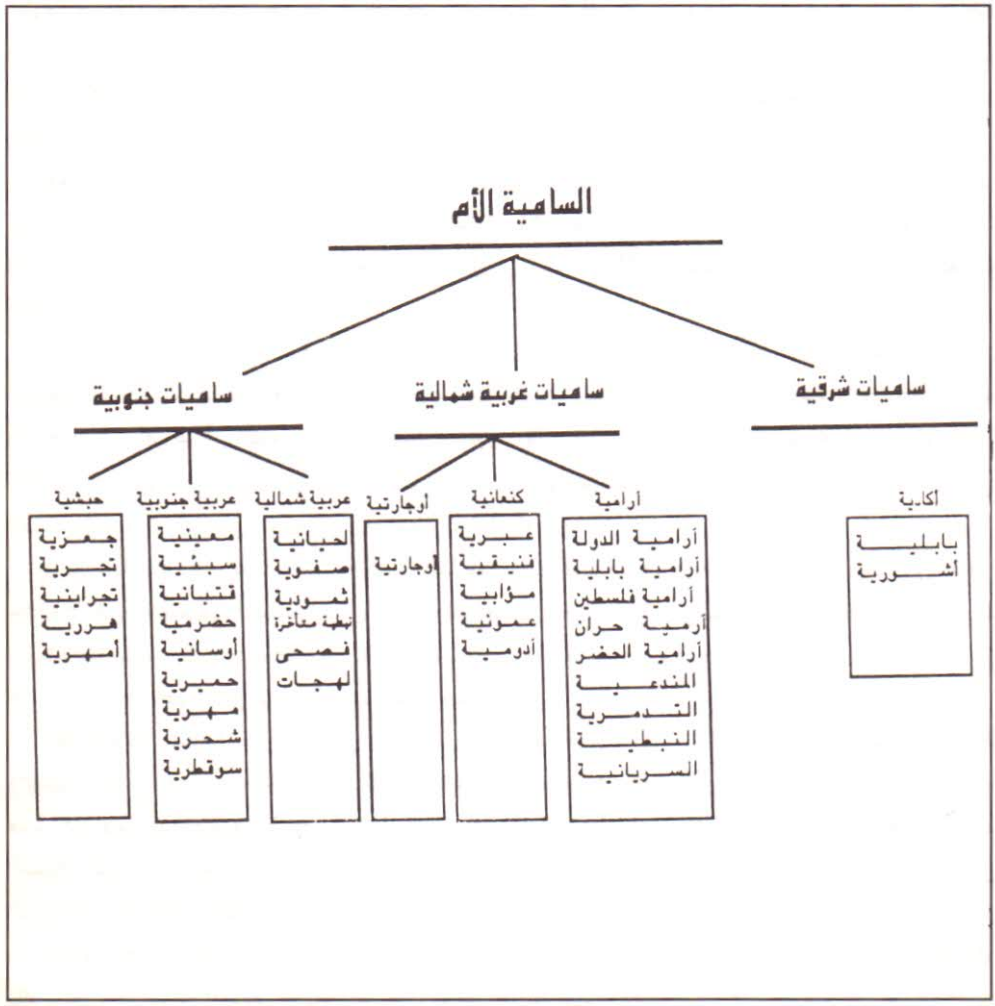

جميع السلالات اللغوية في الشجرة أعلاه وجدت في مساحة بعينها في الشرق الأدنى، وفي مناطق متقاربة غير مفصولة عن بعضها، فالساميات الشرقية في العراق، والساميات الشمالية الغربية في العراق وسوريا وفلسطين، والساميات الجنوبية في اليمن والحبشة، فالتقارب المكاني بينها واضح، والتقارب اللغوي أكثر وضوحاً، ويمكن معرفته بمراجعة الأبحاث المتخصصة بشأنه، فأما في هذه الدراسة فيكفي الإشارة إلى ملامح كبرى، متعلقة بالنظم اللغوية الأساسية (الحركات، الصوامت، الجذور، الجمل، المفردات).

في مجال الحركات: تشترك اللغات السامية كلها في وجود ثلاث حركات أساسية فيها. وهذه الحركات قد تكون قصيرة أو طويلة، ولكنها في الحالتين تلعب الدور الرئيسي في تصريف المفردات السامية، وفي تعيين خاناتها الصرفية. فهي - بخلاف ما هو الحال في اللغات الهندوأوروبية مثلاً - لها خاصية التغيير في نوعها، وفي موقعها بالنسبة لصوامت المادة التي تتصرف بها (كَتَبَ - كاتَبَ - كُتِبَ).

في مجال الصوامت: هناك ظاهرة الوجود البارز والمشترك لأصوات الأطباق (ص ط ق) وأصوات الحلق وخصوصاً (ع ح). ولنطق هذه الصوامت في اللغات السامية كيفية مختلفة إلى حد كبير عن نطقها في لغات أخرى، وبعضها قاصر عليها مثل العين والحاء.

في مجال الاشتقاق: هناك ظاهرة الاعتماد الكبير على التوليد من جذر ثلاثي الصوامت، مع آلية ثابتة، وذات نظام تكاثري، يعتمد على الحركة الانفجارية الداخلية بين صوامت الجذر نفسه. ويتضح ذلك جلياً في عدد الكلمات المتكونة من الجذور المخصبة، غير الصلدة. فثمة بعض المواد الجذور تسمح بتوليد عدد من الصيغ أكثر مما تولده مواد أخرى، ومن ذلك أن مسرد الكلمات العربية من الجذر (علم) يزيد في معجم اللسان عن المائة كلمة. وغير خاف أن هذه السمة تعد ميزة حسنة في اللغات السامية، فهي لا تجعل الناطقين بها يكابدون كغيرهم عند احتضان الكلمات الأعجمية، أو سواها من المصطلحات التي تطرأ في تاريخ المعرفة البشرية، من حيث إن الطبيعة الاشتقاقية لا تسمح في جوهرها بتوليد كلمات شاذة صرفياً، على حين تسمح بذلك الطرائق الأخرى المعهودة في اللغات ذات الطبيعة التركيبية أو النحتية، ولا براح أن الأذن العربية تحس بثقل عندما تتعاطى مصطلحات مثل: أفروآسيوية، وهندوأوروبية. واللاسلكي، والرأسمالي. وميكرفون، وتلفزيون، وسواها من الكلمات المتولدة بغير طريقة الاشتقاق.

في مجال النحو: هناك التمييز بين نمطين من الجمل: اسمية وفعلية. والاسمية تقوم على علاقة التضام بين مسند ومسند إليه، دون رابطة لفظية بينهما من فعل مساعد أو غيره، كما هو في بعض اللغات الهندية الأوروبية. والجملة الفعلية لها خاصية التعامل مع صيغتين اثنتين، إحداهما تدل على الزمن الذي تم وانقطع، والثانية تدل على الزمن المستمر وغير المنقطع.

في مجال المفردات: فاللغات السامية تكاد تتطابق تماماً في تعاملها مع المفردات الدالة على الضمائر، والأعداد، والأدوات، وأيضاً في أسامي العديد من الكائنات الحية، وغير الحية.

وهذا ما دعا العلماء إلى فرض أن الناطقين بهذه اللغات يرجعون إلى أصل واحد، وأن لغاتهم قبل أن يبلبل الله الألسنة كانت وحدة قائمة في مكان واحد. ولكنهم في تحديد ذاك الموطن الأصلي ذوو

اجتهادات مختلفة، وإن تكن متفقة أن تلك البقعة لا تكون من خارج مناطق انتشارهم، وأرجحها أن تكون صحراء بلاد العرب هي الخزان البشري، والإقليم الولود الذي منه تراسلت الهجرات السامية، تاركة الجدب إلى الأودية الخصيبة، هجرة إثر هجرة، والظن الراجح أنها هجرات ابتدأت بالأكاديين (٣٥٠٠ق.م) وتوطنهم الأساسي كان بالعراق، ومن بعد أعقبتهم هجرة الكنعانيين (٢٥٠٠ ق.م) وتوطنهم الأساسي كان بغربي بلاد الشام وسواحل المتوسط، ولما ظهر الآراميون (١٥٠٠ ق.م) توطنوا في الجوف الداخلي من الهلال الخصيب. ومنذ بداية القرن السابع الميلادي (٦٢٢م) كانت الهجرة الأخيرة من قبل العرب المسلمين، وقد خضعت لهم البلاد لغة ودیناً. وعلى نحو ما هي باقية عليه لليوم(١٠).

وعموماً فقد أمكن للعلماء حالياً بفضل من المنهج التاريخي المقارن أن يعيدوا الصياغة والتحليل لجزء غير قليل من قواعد الدراسات اللغوية، التي وضعت من قبل قدامى اللغويين العرب، وأكثر ما يظهر ذلك في معالجة الأنماط اللغوية التي لها أكثر من حالة لغوية واحدة. سيان في ذلك الأصوات والصيغ والتراكيب. على أن جل الأبحاث المحررة في هذا المجال هي من صنع العلماء الأوروبيين أو الأمريكان. بدأت بهم وما زالت ميداناً لهم وحدهم، إلاّ من شذرات هنا وهناك عند بعض العرب، وقد يمضي وقت طويل قبل أن يصبح هذا النوع من الدراسات أصيلاً في الجامعات العربية، فالمتعلّمون في هذه الجامعات قلّ أن يتلقوا مساقات مبرمجة في مثل هذه اللغويات المقارنة، وإن تلقوها فهي من قبيل الثقافة العامة، وذاك لا يؤصّل بالجزم علماً.

وهنا يثور السؤال التالي. ماذا لقدامى العلماء العرب إذن من مساهمات في حقل الساميات؟

ونحن نبسط الإجابة على السؤال بالتوقف عند نسقين من أنساق اليقظة المدنية بين الشعوب السامية، وهما نسق الحضارة ونسق اللغة.

وفي البدء نحتاج أن نشير الى ملحوظتين لهما دورهما في فهم البناء العام للبحث.

- ❖ فأما الملحوظة الأولى فهي وجوب التفريق بين المعرفة الثقافية بالشيء، وقيام درس علمي رصين حوله. ومثلما يوجد فرق بين الشريعة، وفقه الشريعة؛ كذلك يوجد فرق بين المعرفة بالساميات وفقه الساميات، ولا يلزم أبداً من المعرفة ببعض الساميات لغة أو حضارة، معرفة بالعلم الأكاديمي في هذا المجال. فذاك صنعة أهل الصنعة ممن يطلبون هذا الفن حتى يمهروا به.
- ❖ أما الملحوظة الثانية فهي لزوم التذكير بأن معرفة علماء السلف؛ قد كانت في معارف حضارية سامية أكثر منها في لغات سامية، والمعارف الحضارية كما هو معلوم ترتبط بالعرق البشري نفسه، وهي تبقى مستحكمة فيه، حتى وإن بدّل ذاك العرق لغته أو هجرها، وذاك يرى في عادات اللباس والطعام، وفي أدبيات السّمَر والتعبد، وفي فنون الضيافات والحماسات، فهذه الأمور هي أكثر ما تقع فيه المناقلات بين الشعوب، فأما المناقلات اللغوية فهي أضعف حلقات التأثير والتأثر بعامة.

والنية في هذا البحث متوجهة بصورة أساسية إلى إظهار مساهمات علمائنا الأوائل في مجال المعرفة اللغوية السامية، وبصورة ثانوية إلى المعرفة الحضارية. وحيث الثانية مهاد للأولى. ولأن معتاد الحديث أن يكون المهاد بصدره. فلذا نوالي الحديث بتقديم المساهمة الحضارية على المساهمة اللغوية.

١- المساهمة في حقل المعرفة الحضارية غير اللغوية

صلة العرب بأهل الكتاب الساميين في الجاهلية

لا شبهة أن العرب منذ الجاهلية كانت لهم صلات حضارية بأهل الكتاب، وكان العرب يقرّون لهم بامتيازاتهم في الثقافات الفكرية المختلفة، اللهم إلا ثقافة حياة البادية، فالعرب وحدهم أربابها بلا منازع، وبوسع المرء أن يستدل على العلاقة الفكرية بين الطرفين، من خلال ما لديهم، وما لدينا من أخبار باقية عن تلك المرحلة.

صلة العرب بالعبران: وهؤلاء لم تخلُ آدابهم أنفسهم من إشارات عن علاقاتهم بعرب الحجاز ونجد، وأقدم تلك الإشارات مذكورة في نبوءات أنبيائهم، وبخاصة في أسفار إرميا «الإصحاح الخامس والعشرين»، وحزقيال «الإصحاح الخامس والعشرين»، وأيوب «الإصحاح السادس». ومن المعلوم أن الديانة اليهودية كانت قد هبطت إلى بلاد العرب إثر تدمير بيت المقدس على يد الرومان في (٧٠ ق.م). وفئة منهم استقرت باليمن. وهي التي حالفها حظ كبير فأمكن لها في القرن السادس الميلادي، أن تسيطر على حكم اليمن. ويذكر التاريخ أن يهود اليمن كانوا غلاظاً فلم يتسامحوا حتى مع مواطنيهم لما خالفت فئة منهم، واعتنقت النصرانية. وقصة أصحاب الأخدود سيارة دوارة على كل لسان(١١). وهناك فئة يهودية استقرت لتمارس الزراعة، أو الحرفيات اليدوية بواحات أعالي الحجاز (يثرب، تيماء، فدك، خيبر، تبوك). ولم تقم لأي من يهود تلك الواحات قوة سياسية. ولا يعرف كذلك أن أحداً من متحضريهم بله عوامهم، قد كان يلهج يومئذ في التعبير عن حياته العادية بغير اللسان العربي. وبين أيدينا ديوان شعر للسموأل بن عادياء صاحب حصن الأبلق في تيماء. وشعره كله مسبوك بلغة عربية فصيحة لاعابة بها ولانجش.

ولكنه ليس ينكر أن تكون فئة يهودية من الأحبار على معرفة بلغة التوراة نفسها وهي اللغة العبرية. وتلك مسألة توجبها الطقوس الدينية في كل ملّة ونِحْلة، وخصوصاً في الجنائز والأعياد والصلوات.

ومهما يكن من أمر لسان اليهود بالحجاز فمن الثابت أن التوراة لم تكن حتى ذاك الحين مترجمة إلى العربية، وأحبار اليهود كانوا عصرئذ على فئتين؛ فئة تستمد مواعظها من التوراة العبرية نفسها، وأخرى من ترجمتها السريانية. والأرجح أن أحبار المدينة كانوا يقرأون بالسريانية.

والمصادر الإسلامية الأولى وإن تك منقسمة على نفسها في أمر اللغة التي تعلمها زيد بن ثابت من يهود المدينة - أهي عبرية أم سريانية - إلا أنها تجمع على أنه تعلمها بسرعة «قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا زيد، تعلم كتاب يهود، فإني والله لا آمن يهود على كتابي، قال: فتعلمت كتابتهم، فما مرّ لي ست عشرة ليلة حتى حذقته، فكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا، وأجيب إذا كتب»(١٢).

ونحن أميل إلى افتراض أن زيداً تعلّم السريانية لا العبرية، إذ العبرية يومها ليست لغة تفاهم أو تخاطب حتى يستخدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو سواه في المراسلات الدبلوماسية، ولا يعرف أبداً أن العبرية آنذاك كانت لها مدارس فتدرس فيها سواء في الجزيرة أم خارجها. والسريانية هي اللغة التي كانت في ذاك الأوان لغة ثقافية عالمية للسريان، ولكثير من الأمم المتاخمة في معظم منطقة الشرق الأدنى القديم. وقد مارست تلك الوظيفة لفترة نيّفت على بضعة قرون، حتى أزاحتها

العربية عن مكانتها تلك. وقد ورث المسلمون أنفسهم ما لا يحصى من الأديرة، التي كانت مقرات لتدريس اللغة السريانية وحضارتها في: الرها، ونصيبين، وحران، وقنسرين، وجنديسبور، والحيرة، وحمص.

صلة العرب بالسريان: وقد اتسمت بالود منذ بواكيرها الأولى، وتبدى ذلك بما كان للسريان من أثر على عرب «الحيرة» وعرب «الجابية» فعلى حد انقسام السريان الى نساطرة ويعاقبة جرى أيضاً انقسام نصارى العرب مناذرة وغساسنة؛ فتبع كل فريق المذهب السائد بنواحيه. ومن المرجح أن سريان العراق علموا عرب الحيرة القراءة والكتابة، وبدورهم قام هؤلاء بتعليم الأمر الى فئة من العرب الوثنيين بجزيرة العرب، وفي المكتوبات العربية: فعل ذلك بشر بن عبدالملك الكندي[١٣] صاحب دومة الجندل، ولقنه لأبي سفيان بن أمية. ويميل بعض المعاصرين الى أن الخط العربي إنما تولد بأثر من اتصال عرب الحجاز بسريان الشام لا العراق[١٤].

فالعرب في الجاهلية كانت لهم مخالطات بأهل الكتاب، وبالتالي كان لزاماً أن يتأثر الفريقان أحدهما بالآخر. والتأثير على العرب كان هو الأقوى، حيث جنحت بعض بطونهم عن عبادة الوثن إلى عبادة الوحيد، وسيما نحو النصرانية، وشهرت بذلك أزيد من غيرها قبائل السروات وتهامة بسافلة الحجاز، وقبائل من بكر وتنوخ وتغلب بأطراف بادية الشام الجنوبية.

وفي الشعر الجاهلي توجد إشارات تشعر بثقافات فكرية ودينية ومادية، مستمدة من مصادر سريانية أو عبرانية مثل: الإشارة للراهب، والدير، والناقوس، وحانة الخمر. والسفر، والتلميذ، والطوفان، والأنبياء. ومعروف أن بلاط الملوك المناذرة والغساسنة كان عامراً على الدوام بالشعراء الحجازيين والنجديين، وقلّ شاعر جاهلي لم يشد الرحال إلى هؤلاء أو هؤلاء. ناهيك عن شعر (دارسي النصارى) أمية بن أبي الصلت وعدي بن زيد.

على أن عرب الجاهلية وإن علقوا برشفات فكرية، ورشفات مدنية من أهل الكتاب إلا أنهم ما ارتقوا درجة أعلى عن ذياك الحد، ولا صيّروا من تلك التفاريق التي أفادوها علماً، بالمعنى المتعارف عليه تحت مصطلح «علم».

بيد أن حق العلم هنا يلزمنا أن نؤكد على أن عربية الجاهلية لم تتأثر تأثراً واضحاً بفكرة الإلهيات عموماً، على شتى مناحيها؛ وثنية أم نصرانية أو يهودية. والأدب الجاهلي، برغم أنه من نتاج مرحلة وثنية، إلا أنه ليس أدباً وثنياً، وحظ الوثنية فيه قليل قلة تدعو للعجب. والإسلام هو وحده، الذي تمازجت معه العربية روحاً وجسداً. ولذا نجد عربية ما بعد الجاهلية حافلة بالتدين الإسلامي حتى الثمالة.

ولعل فن (القريض) هو الظاهرة الثقافية الوحيدة التي صارت عند عرب الجاهلية علماً. ونحن إلى يومنا الحاضر لا نزال نعدّ الشعر الجاهلي متميزاً في الجودة والبراعة، إنه بعيوننا كفينوس بعيون اليونان: مثالاً أعلى للكمال، على كر الدهور، وتوالي العصور.

وقبل أن نختم هذه الفقرة، وجب أن نشير إلى الحقيقة الماثلة بكل جلاء، وهي خروج العربية الجاهلية منتصرة في كل احتكاك لها بأخواتها الساميات. ومن عجب أن يقع ذلك للعربية على رغم ضعف العرب عصرئذ سياسياً وحضارياً. تَعَرَّب في اليمن الحميريون ولم يقع العكس، وتَعَرَّب في

الحجاز اليهود ولم يقع العكس، وظل العرب عرباً في الممالك السريانية، منذ وطئوها في القرون الأربعة السابقة على مقدم الإسلام، فحيثما ترسل لغة الضاد للعراك تراها لا تخشى نَغَصَ الدِّخال، وفي هذا ما يؤكد مرونتها وملاءمتها للحياة في جميع الأحوال، وإذا كانت العربية لم تُغلَب، وكانت شَموساً زبوناً قبل الإسلام، فبالحرى أن تظل كذلك صليبة عتيدة بعد الإسلام وفي الفقرة التالية تجليات هذه المسألة.

صلة العرب بأهل الذمة في الإسلام

يستدل من مجريات الأمور، أن المعرفة الخاصة بالساميات؛ لم تتغير كثيراً في الأعصر الإسلامية الأولى، عما كانت عليه قبل الإسلام، فلقد بقيت ركاماً معرفياً لا نظاماً معرفياً، على أنه ركام لا شك ثمين، وجدير بأن يُشَمس للرائين.

فلقد تسنى لأهل العلم من العرب المسلمين الأول، أن يهضموا في بضعة عقود من الزمن، جوهر الثقافة الجديدة، في بلاد الفتوح الجديدة، ولا براح أنهم صاروا الوريث الفكري الوحيد لتلك الثقافة، بيد أن اللقاح الحضاري بين البشر له في العادة نواميس يجري عليها، وأهمها ثلاثة رئيسية:

أ- قانون التأثير من الغالب في المغلوب.

ب- قانون التأثير من المغلوب في الغالب.

ج- قانون التأثير بين المتجاورين على تباعد النسب أو تقاربه.

والتأثير والتأثر يقع عادة في مدارج العلوم الطبيعية أكثر من وقوعه في مدارج العلوم الإنسانية. وفي كل أحوال الاحتكاك، لا يمكن أن يظل طرف صخرة جلموداً، لا عليه ولا له، ولا مناص من تأثر كل طرف بالآخر(١٥) ويهمنا في مبحثنا هذا أن نتوقف فقط عند الأول والثاني من القوانين أعلاه، فأما الثالث فتفاعلاته لا تخدم موضوعنا.

وفي المراحل الأولى من الفتح الإسلامي وقع تأثير من الغالب في المغلوب، وبرز ذلك في متغيرين هما: متغير الدين ومتغير اللغة. وقد تمت الانعكاسات على المتغير الأول قبل الثاني، ولا غرابة في ذلك؛ لأن اللغة كما العادات لهما طبيعة الاستمرار، ولا تستطيع قوة بشرية مهما عظمت، أن تحدث فيهما تغيراً ملحوظاً إلا بتراخي الزمن، ولكن ذلك قد يقع في الدين وبظرف فَيْنَة قصيرة من الزمن.

وصفوة ما جرى على المحورين يتلخص بأنه لم يمض قرابة نصف قرن من الزمان حتى كان معظم الناس في بلاد الفتوح قد امتزجوا مع العرب ديانة ولغة. وهي حالة فريدة نسبياً في تاريخ الاحتكاك الجغرافي بين البشر؛ من حيث إن المعتاد في هذا المقام أن يقتبس الفريق المغلوب الديانة وحدها، ومن ثم يتعبد بها وفق رطانته الخاصة به. وهذا الاتجاه عليه حال الناس لليوم في النصرانية واليهودية معاً، وألمعنا آنفاً إلى اعتناق بطون عربية للنصرانية مع بقائها عربية من جهة اللسان، وفي ديانة الإسلام لا يكون الحال كذلك؛ لأنه لا إسلام إلا بعربية، ولا قراءة للقرآن الكريم إلا بعربية، وإن جاز على قلة وقوع عربية من غير إسلام، فالعكس لا يجوز البتة، وهذه نقطة ستتعمّق لاحقاً في الفقرة المتكلمة عن قداسة العربية.

ولئن غَلَبَ العرب المسلمون في مجالي الدين واللغة فقد غُلِبوا بدورهم للتمدن الفكري والحضاري عند الأمم المغلوبة نفسها. وأبرز ذلك أن الثقافة العربية عَلِقَتْ نظم اليونان في العلوم البحتة والعلوم

الكلامية، ونظم الفرس في فنون العمارة وجماليات الأثاث والرياش، ونظم الهنود في التوابل والطيوب، ونظم النبط في الفلاحة والحرفيات اليدوية، ونظم السريان أو العبران في الأبحاث التاريخية، وأدبيات المغيبات عموماً.

وأما بخصوص العلوم الفكرية المتصلة بالقرآن الكريم، والحديث الشريف؛ فالراجح أنها قد برزت الى الوجود بانفجار داخلي، من نتاج العقلية العربية الإسلامية. وذلك كنتيجة منطقية لتوافر الاهتمام بالعلوم الشرعية.

والعلماء المسلمون حتى اليوم ما زالوا يجمعون على تفضيل العلوم الشرعية على ما سواها(١٦) وكان من اهتمامهم بها أن ارتقت لديهم حتى صارت علماً مستقلاً بذاته (علم الشريعة)، وكانت في السالفين تفاريق لا مخروزة ولا محبوكة بله أن تكون علماً بذاتها.

ونلتفت هنا الى مسألتين جديرتين بالعناية، وتخدمان ما نحن بصدده من مبحث وهما: مسألة اللغة ومسألة العرق في الحضارة الجديدة التي نشأت من ارتباط العقلية العربية بغيرها من العقليات الأخرى.

- ❖ فأما في مسألة اللغة فكان التواصل الثقافي في المجتمع الجديد يعبّر عن نفسه غالباً باللغة العربية الفصحى، بل الأمر بالنسبة للمسلمين كان متواتراً على وجوب استعمال العربية الفصحى وحدها.
- ❖ وأما في مسألة العرق فيشار هنا إلى أن الحضارة العربية الجديدة لم تكن نتاج عقل عربي خالص وحسب، وإنما هي شراكة قام بها أبناء المجتمع الاسلامي الجديد من شتى الأصول والمنابت، وبعضهم كان - ولا ريب - يحيا بلغتين لغة للحياة اليومية وأخرى للثقافة، وليس ذاك بدعاً، وفي التاريخ نماذج مشابهة كأمر الساميين من الأنباط والتدمريين. وكان من غابرهم - على ما هو راجح لدى العلماء(١٧) - أنهم تفاهموا في حياتهم العادية بلهجة عربية، ولكنهم تراسلوا الكتابة بالآرامية.

وعلى رغم أن معالم الأعراق تذوب في بوتقة الإسلام، وأيضاً في بوتقة العروبة «ليست العربية من أحدكم بأب ولا أم فمن تعلم العربية فهو عربي» إلا أن العلم التاريخي يثبت، أن أهل الذمة، لا سيما السريان، قد اضطلعوا بالدور الأكبر في تموين الحضارة الإسلامية، بالنقل من اللغات الأخرى اليها. وعن السريان، وعن مصادرهم الثقافية، استمد علماؤنا الأوائل أوضح معارفهم عن الساميين ولغاتهم. وفي كتب التراجم العربية الأولى ذكر لأسماء العديد ممن ساهموا بنقل إلى العربية(١٨). وقد كان أولئك النقلة على علم باللسانين، وكانوا غير جامدين في مهمتهم، ولا مقيدين بوضعية معينة، بل كان منظور إليهم بعين الرضا، وحتى من لم يُسْلِم منهم، فإن وضعيته لم يمسها تحقير أو مهانة، ومن معالم الإسلام الواضحة أنه لا إكراه فيه على الدين.

وقد كان شأن السريان أن أسْلَمَة الناس بينهم، وقعت متأخرة لانتشار العربية فيهم، فهم تعلموا العربية لغة الفاتحين أولاً، وتدريجياً جعلوا يدخلون في الإسلام، وبعضهم باق لليوم على نصرانيته، وعلى لسانه معاً، ويلحظ ذلك في بضعة أصقاع في جبل القلمون بسوريا. وفي ديار بكر بنواحي الموصل، وفي قرى متناثرة من بلاد الكرد والترك والفرس.

حضور الساميين وغيابهم في كتب العلماء العرب القدماء

حين يتفقد المرء الجماعات السامية حضوراً وغياباً، فإنه يمكنه أن يوزعهم على ثلاثة الأطر التالية:

❖ الإطار الأول: وتندرج فيه الجماعات التي بادت، واندثرت منذ حقب طويلة، قبل ظهور العرب السياسي في القرن السادس الميلادي، وهذه لا تُذكر بتاتاً في أي من كتابات القدماء، ومنها الجماعة الشرقية في بابل وآشور، وهي المعروفة اصطلاحاً تحت مسمى «أكادية»: وهذه إنما أُميط اللثام عنها في القرن الماضي، بعد حلّ الرموز المسمارية، ومثلها لا ذكر لكثير من أفرع الجماعات الأخرى التي سادت وبادت في عصور ما قبل الميلاد، مثل: الأوجاريتية والفينيقية والمؤابية والتدمرية وبقية البطون الآرامية البائدة. وهناك في الجنوب: المعينية والقتبانية والأوسانية والسبئية، وينضاف هنا المجموعة التي سادت يوماً في منطقة الحلف الثمودي على طريق التجارة الشامي الى الجنوب، وبالذات في حوض البادية الممتد من "ددان" بأعالي الحجاز إلى "حوران" بجنوب الشام. وهي جماعة اللحيانيين والصفويين والثموديين، والعلم بهؤلاء، قد تضح مؤخراً بفضل علم الأثريات الحديث لا قبله.

❖ الإطار الثاني: وتندرج فيه الجماعات ذات الطابع الوثني، تلك التي كانت حية وموجودة في بعض نواحي الأرض المحيطة بالعرب، إلا أنها وبسبب من صراع الإسلام مع الوثنية قد أهمل العلماء بداية الإفادة منها، واستمر الحال كذلك قرابة قرنين من الزمن إلى أن عاد لها الاهتمام بها مع علماء القرن الثالث الهجري وما تلاه، ويصدق هذا على الحميرية في اليمن. وعلى المندعية والصابئة من بطون المجموعة الآرامية في العراق.

❖ وأما الإطار الثالث، فتندرج فيه الجماعات التي لها تعلق بالديانات التوحيدية لا الوثنية، وهي هنا محصورة في ثلاث جماعات (العبران والسريان والحبشان)، وجميع هذه لها حضور مشهود في مكتوباتنا القديمة. والحضور بالنسبة للعبرانية هو الأوسع: ويليه في الكثرة السريانية فالحبشية.

معارف ثقافية سامية أثبتها العلماء العرب في مكتوباتهم

لقد كان بعض علماء السلف الأول يُعَربون الكتب المنزلة الأخرى مثل التوراة والإنجيل، وكانوا يفيدون منها في مكتوباتهم، على نحو ما توضحه النصوص الآتية.

❖ فعن عمر رضي الله عنه، «أنه أتاه كعب الأحبار بسفر، وقال: هذه التوراة: أفأقرؤها؟ فقال عمر: إن كنت تعلم أنها التي أنزل الله على موسى، فاقرأها آناء الليل والنهار»(١٩).

❖ وفي الحديث عن أبي هريرة أن أهل الكتب كانوا يقرأون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها لأهل الإسلام بالعربية. وقال النبي عليه السلام: «لا تصدقوا أهل الكتاب بما يحدثونكم عن الكتاب ولا تكذبوهم»(٢٠).

❖ وعن أبي بكر بن عياش أنه قال: قلت للأعمش ما لهم يتقون تفسير مجاهد: قال كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب(٢١).

❖ وعن الصنعاني قال: سمعت وهب بن منبه يقول: قرأت اثنين وتسعين كتاباً كلها أنزلت من السماء،

اثنين وسبعين في الكنائس وفي أيدي الناس وعشرين لا يعلمها إلا القليل(٢٢).

❖ سأل رجل علي بن الحسين بمكة عن بدء الطواف، لم كان وأنى كان، وحيث كان، وكيف كان؟ فقال علي بن الحسين: من أين أنت؟ قال من أهل الشام، قال: أين مسكنك؟ قال: في بيت المقدس قال: فهل قرأت الكتابين؟ يعني التوراة والانجيل. قال الرجل: نعم، قال علي: يا أخا أهل الشام احفظ ولا تروين إلا حقاً....(٢٣).

❖ ولقد أرخ الطبري من حوادث سنة ٦١ هجرية أن عبدالله بن عمرو بن العاص كان قد قرأ سفر دانيال الذي يتحدث عن السبي البابلي(٢٤).

❖ وفي مادة كنع إشارة من الخليل بن أحمد الفراهيدي مفادها: وكنعان بن سام بن نوح- اليه ينسب الكنعانيون، وكانوا يتكلمون بلغة تقارب العربية(٢٥).

❖ وعن ابن قتيبة «قرأت في التوراة بعد ذكر أنساب ولد نوح: أنهم تفرقوا في كل أرض، وكانت الأرض لساناً واحداً(٢٦).

❖ وفي مرآة الزمان في تاريخ الأعيان عن ابن عباس، أن الله كسا موضع الضلع لحماً، ولما رآها آدم قال: أثاثاً، وتفسيره بالسريانية: امرأة»(٢٧).

❖ وفي البداية والنهاية لا خلاف أن عدنان من سلالة اسماعيل بن ابراهيم، واختلفوا في عدة الآباء على أقوال كثيرة، فأكثر ما قيل أربعون أباً. وهو الموجود عند أهل الكتاب، أخذوه من كتاب رخياً كاتب إرميا»(٢٨).

❖ أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها آدم عليه السلام وقيل أول من خط بالقلم بالجملة آدم، وقيل ادريس، وأول من كتب بالعربية قيل: هود وقيل: اسماعيل، وقيل: ثلاثة نفر من بولان من طيء، وقيل أول من وضع الكتاب العربي: أبجد وهوز، وحطي، وكلمن، وسعفص، وقرشت، وكانوا ملوكاً فسمي الهجاء بأسمائهم. وجعل آخرون هذه المقطعات الأبجدية المحضة مسميات تطلق على أيام الأسبوع، لا على ملوك غابرين؛ فالله لما خلق السموات والأرض في ستة أيام لم يترك يوماً الا ووضع له اسماً هي: أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت. وسند هذه الروايات يرجع بها الى شخوص مثل كعب الأحبار، ومجاهد والضحاك بن مزاحم(٢٩).

❖ ويذكر آخرون للعرب بهذا الصدد تسميات أخرى في حد الزمان والأيام، وهي أن العرب العاربة كانوا يسمون يوم الأحد الأول، لأنه أول أعداد الأيام، ويسمون الاثنين أهون أخذاً من الهون، ويسمون الثلاثاء جُباراً لأنه جُبر به العدد، ويسمون الأربعاء دُباراً لأنه دَبّر ما جبر به العدد، بمعنى جاء دبره، ويسمون الخميس مُؤَنساً، لأنه يؤنس به لبركته، ويسمون الجمعة عَروبة، ويسمون السبت شياراً أخذاً من شرت الشيء اذا استخرجته وأظهرته من مكانه(٣٠).

❖ وعن مسألة أولية اللغات السامية: «فهذه جزيرة العرب كانت مملكة واحدة ولسانها واحد سرياني، وهو لسان آدم ونوح وابراهيم وغيرهم من الأنبياء فيما ذكر أهل الكتب السماوية، غير أن ابراهيم حولت لغته إلى العبرانية حين عبر النهر «الفرات» وغير ولده اسماعيل لغته إلى العربية لما نشأ في جرهم، حتى قيل أن ابراهيم لما كان يبني البيت يقول لإسماعيل: هات هَيْك، والهيك بالسريانية الحجر، فيقول له اسماعيل خذ الحجر، فهذا يتكلم بالسريانية وهذا بالعربية»، وقيل «كان آدم

يتكلم العربية فلما نزل إلى الأرض حولت لغته إلى السريانية»(٣١).

❖ نقل ابن النديم عن أبي يوسف أيشع القطيعي في كتابه في الكشف عن مذاهب الحرانيين المعروفين بالصابئة: أن المأمون أنكر زيهم وقال لهم «من أنتم من الذمة؟ فقالوا: نحن الحرانية! قال أنصارى أنتم؟ قالوا لا قال: فيهود أنتم؟ قالوا: لا قال: فمجوس أنتم؟ قالوا لا! قال لهم أفلكم كتاب أم نبي، فمجمجوا في القول: فقال لهم فأنتم إذاً الزنادقة، عبدة الأوثان، وأصحاب الرأس في أيام الرشيد والدي!»(٣٢).

حقيقة معرفة العلماء العرب ببعض ما أثبتوه من معارف سامية:

يمكننا في ضوء قراءة متأنية لمواضع كثيرة في تراثنا اللغوي والأدبي والبلاغي، وفي كتب علوم القرآن، وفي كتب المؤرخين، أن نرسم خطوطاً كبرى، تعكس المنهجية الفنية التي بها قدم علماؤنا الأوائل معارفهم عن بعض الساميين وحضاراتهم. ونسق الأفكار هنا يشمل الخوض في بواعث المعرفة، ومن وضعها، ومادة الخبر فيها، ومنزلتها من التوثيق العلمي.

❖ ***بواعث المعرفة:*** ليس بوسع باحث أن يحزر اليوم بصورة قطعية، بالبواعث التي أفضت بفئة من علماء السلف، كي يثبتوا في مكتوباتهم معلومات عن لغات سامية، أو عن حضارات سامية. وأكبر الظن هنا أن بذرة التدوين الأولى، قام بها عقل أهل الذمة أنفسهم، وليس عقل العرب من أبناء جزيرة العرب، وثمة ظروف موضوعية متنوعة، ربما كانت بمجملها تدفع بأهل الذمة للقيام بما قاموا به في هذا المقام؛ إسلاماً عند فئة منهم، ورغبة من فئة أخرى بعيش رغيد في الحياة الإسلامية الواعدة، وطمعاً من فئة ثالثة بمخاطبة المجتمع الجديد بما للذميين من مآثر، ولا يبعد أيضاً أن جزءاً من الخطاب كان موجهاً في الأساس لأهل الذمة أنفسهم، من حيث إن لغاتهم الأصلية لم تعد أصلاً لغات حية بينهم فيتفاهمون بها، فالسريانية انكمشت على نفسها مع أول تصادم مباشر لها مع العربية، وبزمن قصير نسبياً غدت العربية وليس السريانية هي المعول عليها في التفاهم بين السريان، ومن قبلهم تأثرت العبرية كذلك بالانكسار السياسي الذي ناله اليهود، إثر سبيهم وتدمير هيكلهم في القدس ٥٨٦ ق.م، فكان أن تحولت إلى مجرد لغة ديانة فقط، وغدا العبران يتفاهمون بلسان من ينزلون بينهم من الأقوام؛ وظلوا كذلك حتى جرت لهم وللغتهم حياة من جديد قبل بضعة عقود من عقدنا الذي به نحيا.

وأما بالنسبة للعرب الأقحاح فمن المسلم به أن نقطة الفخار لديهم تكمن فيما صار موضع عزة لهم، وذلك في الإسلام وفي العربية. ولذا ليس معقولاً أبداً أن تبدأ حركة التوثيق لدى العلماء منهم بعلوم الآخرين. ومن المعلوم جيداً أن أبحاث الشريعة واللغة العربية هما أقدم الأبحاث العلمية الرصينة في الحضارة العربية الإسلامية، ومن بعد أخذ الاهتمام ينصرف إلى المعارف الأخرى، فكرية وغير فكرية: وقد نجحت الجهود في هذا المنحى بمأسسة أفرع علمية عديدة بالمعنى المتعارف عليه تحت مصطلح «علم» مثل التاريخ والطب والفلسفة والجغرافيا، والكيمياء ونحو من هذا(٣٣). على أنه ليس يمكن للباحث أن يصف الجهود في حقل الساميات لغة وحضارة تحت مصطلح (علم) وإلا تزعزع

استقرار المصطلحات. وكنا ألمعنا من قبل أن درس الساميات لم يشتد على ساقة علماً مستقلاً إلا بأواخر القرن الثامن عشر.

- ***أعلام المعرفة:*** يتعذر كثيراً على الباحث أن يجد بين علمائنا الأوائل من قد انقطع لتخصص بعينه فلم ينشغل عنه بسواه، ولعل قلة اتساع المعرفة - عمقاً وطولاً - كانت من العوامل المهمة التي تجعلهم قادرين على بسط أجنحتهم فوق أفنانها كلها أو أكثرها، وتبعاً لهذا فالأعلام الواردة هنا ينبغي أن يُنظر اليها نظرة الى هواة علم لا محترفين له. وجلّ هؤلاء كانوا يتقاطبون على إثبات معارف غير لغوية: عن الخطوط والآداب والدين. ونحن يمكننا - في ضوء أساليبهم - أن نضعهم في طبقات ثلاث.
  - الطبقة الأولى: وهم رواد العلم، وقد شغلها مَسْلَمَة اليهود ومنهم: كعب الأحبار ت٣٤هـ، وعبدالله بن سلام ت٤٣هـ، ووهب بن منبه ت١١٠هـ، وأبو مخنف ت١٥٧هـ، وهؤلاء كانوا يرسلون الأخبار مُتَهَدِّين فيها بخلفياتهم الثقافية عن أسلافهم الماضين.
  - الطبقة الثانية: وقد شغلها رواد علم تفسير القرآن الكريم، ومنهم: ابن عباس ت٦٨هـ، ومجاهد بن جبير ت٩٤هـ، وعروة بن الزبير ت٩٤هـ، والضحاك بن مزاحم ت١٠٥هـ، والزهري ت١٢٤، ومعظم رجال هاتين الطبقتين الأولى والثانية منظور إليهم على أنهم أيضاً من رواد علم التاريخ الإسلامي.

وقد يشار هنا إلى أن الطبقة الثانية إنما بنت معرفتها بالساميات على اهتداء واضح بقولات الطبقة الأولى. ومهما يكن من أمر الفئتين فإن جزءاً ضئيلاً فقط مما نُسبَ اليهم تَحدَّر إلينا منهم مباشرة. ومعظم الإرث في هذا المقام قد وصل إلينا بطريق من بعدهم.

- الطبقة الثالثة: وهي طبقة علماء العصر العباسي، ولم يبق هؤلاء معتمدين على جهد من قبلهم فقط، وإنما توسعوا في الموضوعات بإضافات خاصة بهم، اعتمدوا فيها على نصوص سريانية، أو عبرية، أو ربما على ترجمات عربية لتلك النصوص، ومن علماء هذه الطبقة الواقدي ت٢٠٧هـ، وابن هشام ت٢١٨هـ، وابن سعد ت٢٣٠هـ، والأزرقي ت٢٥٠، وابن قتيبة ت٢٧٦، والطبري ت٣١٠هـ، والمسعودي ت٣٤٥هـ، وابن النديم ت٣٨٥هـ، والثعالبي ت٤٣١هـ، وابن حزم ت٤٥٦هـ.

وكأنما ضعف بعد هذا التاريخ التَّلفُتُ الى معارف أهل الذمة، إذ لم تعد تَجْبَهُ القارئ معارف من هذا القبيل بسهولة، مع التحوط بأن المسألة هنا ينبغي أن تؤخذ بالمعنى التقريبي لا الإحصائي، على أننا حقاً قد نبشنا بطون كتب عديدة حول هذه الظاهرة.

- ***مادة الخبر:*** تعد الخلفية الثقافية المشتركة لعقيدة أهل الأديان السماوية أهم مادة إخبارية كانت تحظى بعناية العلماء الذين عرجنا على ذكرهم آنفاً، وأكثر المعرفة هنا تقدم مرويات غيبية وذات طابع شمولي: عن الخطوط، والآداب، والتواريخ، والأديان، وما يتصل بهذا وذاك مما يدخل تحت مصطلح (يقظة فكرية). وندرت جداً المرويات الدالة على معرفة بالتداخل (اللغوي المقارن) في مدارجه المختلفة: من الصوتي، والصرفي، والمعجمي، والنحوي، والدلالي. وسنفرد التداخل اللغوي بحديث مستقل، يرد في موضعه من قابل طيات البحث.
- ***التوثيق العلمي في المرويات:*** أتحف علماؤنا الأوائل خزانة المكتبة العربية، بما قيدوه من معلومات في حقل المعرفة السامية غير اللغوية، وما عتمت تلك المعلومات أن أصبحت جزءاً من الثقافة

العربية التاريخية، ولكنها برغم ذلك لم تتخذ مثالاً، ولا أساساً لما قام حديثاً من علم في المقارنات السامية، وتحوم الظنون كثيراً حول براءة الخبر فيها، ولا بأس أن نورد بهذا الخصوص ملحوظتين واحدة عن توثيق السند وأخرى عن توثيق المتن.

◆ ***توثيق السند:*** والمدقق في سند المرويات المذكورة هنا يراها مستوفية من الناحية الشكلية لشرائط العلم الصحيح فيها، فبصدر كل رواية سلسلة رواتها. ومن الطبيعي أن لا تورد رواية بغير سلسلة. وذلك لكون العلماء المسلمين هم أنفسهم الذين أصّلوا لفكرة تسلسل السند، ولم يقتبسوا فنها عن غيرهم. وكيف بهم ذلك، وعلم الأنساب تليد عريق فيهم؟ فوجود العنعنة إذن كان منهج علم، ومُغَلَّطٌ من يُغالِط فيه.

ولكن المرويات في حقل المعرفة السامية، يكثر فيها على نحو ما هو ملحوظ في الروايات آنفاً، أن تقترن بعنعنة ترتفع حتى تنتهي إلى أنبياء كرام، أو عباد مشهورين، ولا ريب أن المعلومة صحيحة أم خاطئة سَتَتَمَوَّن في هذه الحالة بقداسة خارجية، وبرَصَد يحميها من الاعتراض عليها، فلا تُجْبَه بتخطئة ولا يقابَل صاحبها بتسوئة، وعليه ينبعث السؤال:

هل صحَّ قولُ مِنَ الحاكي فنقلبه أمْ كلّ ذاكَ أباطيل وأسْمَارُ «أبو العلاء»

◆ ***توثيق المتن:*** وإذا كانت الحال كذلك في شأن السند، فبالحرى أن تكون في شأن المتن أعرض وأرحب، سيما وأن المسلمين لم يؤصّلوا في موضوع المتن تقاليد راكزة، كتقاليدهم في موضوع السند. وعلى الدوام قلما نرى علماء السلف يتشاكسون في نقد داخلي لبواطن الأمور؛ بل إن معتاد الثقافة بينهم أن يعلّموا أو يتعلّموا بعين مُعارَة أكثر منه بعين مملوكة، فالمعلومة تُجرّح أو تُصحّح من خلال محاكمة راويها أولاً، ومن بعد قد يُلتَفت إلى مضمونها، وقد لا يكون ذلك.

وفن المحاججة يتم في أكثر حالاته باستحضار قالة الغير، لا قالة النص نفسه. ولا غرابة هنا فعلم نقد النصوص لم يصبح علماً منضبطاً إلا حديثاً.

وليس من باب المغالاة أن نزعم بأن علماءنا الأوائل لم يكونوا معنيين كثيراً بإبداء أية اجتهادات شخصية في مضمون الخبر بعامة، ولا يبعد أنهم كانوا في المجال السامي ملتزمين فقط، بتدوين مختلف ما يقع لهم من معارف، وبلا تدقيق أو تمحيص. ولمن يهمه حرفية الخبر أن يؤوله أو يأخذه على ظاهره؛ ومن غير إنكار على هؤلاء أو هؤلاء. وهناك بعد حديث شريف بصحيح البخاري، يسمح مضمونه بالتساهل في مجمل الأخبار السامية، فعن عبدالله بن عمرو بن العاص، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «بلّغوا عني ولو آية، وحدّثوا عن بني اسرائيل ولا حرج».

وليس يهمنا كثيراً أن نحلل جوهر الدلالة في كل مروية على حِدَة، فالزيف أشهر من أن ينكر في عدة الكتب التي اطلع عليها وهب بن منبه، ولو أن بعضها قاوم البلى، واستمر لزمانه لكان أولى به - وقد قوي لاحقاً عصر التوثيق - أن يستمر لليوم، ورواية الأوائل في الخط مردودة، ولا تدقيق فيها، ومثلها رواية التقاويم للأيام والشهور والفصول، ومثلها رواية تبديل اللسان المكذوبة، ومن ذا بقدرته أن يشلح من ذاته لسانه كما يشلح قميصه! وابن النديم يخلط في توصيفه بين رطانات الجماعات المختلفة من السريان، فهو يتحدث عن الصابئة ومسكنهم بنواحي (ذي قار) كما لو كانوا تابعين لكنيسة حران شمالاً.

وفي تاريخ العلم أن الإفادة من معلومات الكتاب المقدس قد صارت متاحة للمتعلمين العرب والمسلمين، منذ القسم الأخير من القرن الثاني الهجري، زمن المأمون، مؤسس «بيت الحكمة» ذاك البيت الذي كان خزانة كتب، ودار علم وترجمة. والمرجح أن الترجمات الأولى للكتاب المقدس كانت من السريانية لا من العبرية.

على أنه منذ أواخر القرن الثالث الهجري صار بإمكان المتعلمين أن يقرأوا من ترجمات منقولة مباشرة من العبرية نفسها، وذلك بعدما أنجز اليهودي «سعديا الفيومي» في خلافة المقتدر أول ترجمة هامة للعهد القديم، من العبرية إلى العربية مباشرة.

وعقب ذلك صرنا نقرأ باتساع في مؤلفات المسلمين عن معارف متصلة بالثقافة السامية عموماً واليهودية خصوصاً، وندر بعد الربع الأول من القرن الرابع الهجري أن يخلو كتاب من كتب المعارف العامة من معلومات عن الثقافة اليهودية، وقائمة النصوص العريضة التي أسلفنا بها آنفاً تؤكد صحة زعمنا.

وفي كل هذه الاضاءات ما يقنع بأن المعرفة السامية التي قدمها لنا علماؤنا الأوائل بها ترخص، وبخاصة في المتن. وفي المرويات أعلاه دَخَنْ ومَجْمَجَه ظاهرين، ولذا وجب أن تأخذ هذه المرويات وأمثالها مأخذاً استدلالياً لا حرفياً، وعلى أية حال تبقى من المعارف المسجلة في تاريخ العلم السامي عند العرب.

ب- المساهمة في حقل المعرفة اللغوية السامية

الأندلس محطة مهمة في الدرس اللغوي المقارن

في شبه الجزيرة الأيبيرية هناك في الأندلس، وفي ظل جو السماحة الدينية، وأجواء الرفاه الاقتصادي، والسياسي، والثقافي، التي سادت ذاك الإقليم. نشأت مَدَنية جديدة. كانت فيها قرطبة، وطليطلة، واشبيلية، وغرناطة، كما بغداد، والبصرة، والكوفة في الإقليم الشرقي من دولة الخلافة الإسلامية. فقد كان بلاط الملقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله عبدالرحمن الثالث، وأحفاده من بعده يعجّ كخلية النحل بأئمة العلماء، في مختلف العلوم والفنون والآداب، أمثال: ابن عبدربه ت٣٢٨هـ، والقالي ت٣٥٦هـ، وابن القوطية ت٣٦٧هـ، والزبيدي ت٣٧٩هـ، وابن حزم ت٤٥٦هـ، وابن سيدة ت٤٥٨هـ، والقرطبي ت٧٦١هـ، وغيرهم.

وكان من ثمرة أجواء الازدهار والاستقرار في الأندلس آنذاك، أن ظهرت هناك ثقافة سامية عاشت ربيبة للثقافة العربية، وهي ثقافة اليهود الذين أخذوا يتجمعون بأعداد كبيرة هناك، فحققوا الثراء، وواصل بعضهم إلى مراتب عليا في الدولة، وأخذوا من السلطان إذناً بتأسيس مدارس دينية لهم. وقام على تلك المدارس أحبار أكفياء مُستَجلبون من شتى بقاع الأرض، وهؤلاء كانوا على براعة عالية باللغة العربية، وبراعة بلغتهم العبرية، فالأولى هي جواز مرورهم إلى بلاط الحكام، والثانية هي همهم الذي يريدون له القوة والحياة.

وظهرت حركة فكرية باللغة العبرية نفسها. وبقيت تلك الحركة حتى أفل نجم المسلمين في

الأندلس، حيث عادت العبرية لغة ديانة فقط. وقد كان أن عمد نحاتهم إلى مناهج اللغويين والنحاة العرب، فطبقوها على لغتهم، وعمد شعراؤهم وأدباؤهم إلى أساليب شعر العرب وخطبهم فحاكوها في شعرهم وخطبهم، بل إنهم كتبوا درسهم اللغوي الأول باللسان العربي والخط العبري (كتابة عربية بخط عبري) كما هو في مدونات جيل الرواد الأول «يهودا بن حيوج» الإمام في النحو العبري كما سيبويه في النحو العربي، وكان مغرماً بفكرة الاشتقاق العربية التي تُرجع المفردات إلى أصول ثلاثية فطبقها على العبرية في كتاب «جمل النحو العبراني»، وتلاه الطبيب والنحوي الشهير (أبو الوليد مروان بن جناح القرطبي) وهذا وضع مؤلفاً من مجلدين (١٠٤٠ صفحة) بعنوان «كتاب التنقيح» خصص القسم الأول كتاب (اللمع) في نحو عبرية التوراة. والقسم الثاني كتاب (الأصول) في البناء المعجمي لتلك اللغة، وقد نظرنا في كتاب اللمع ملياً، وهو مكتوب باللغة المعروفة عربية العبران، فأيْقَنّا أنه لولا تطبيقاته على العبرية لوجب أن يكون أحد كتب النحو العربية؛ فالعرض، والاستدلال، والمصطلحات، وهيئة ترتيب الجمل هي عينها طريقة البصريين في علم النحو، أو لنقل بصورة أوضح هي انعكاس للكتاب النحوي المدرسي الطابع، كتاب (الواضح) للزبيدي الأندلسي ت٣٧٩هـ وقد كان ذاك الكتاب محط إعجاب الأندلسيين عصرئذ.

وبرزت الدراسات المقارنة عند أحبار الأندلس كذلك في فن الشعر حين أخذوا ينظمون شعرهم العبري في قوالب الشعر العربي نفسها، وفي أغراض متنوعة كأغراضه، ومن قبل كان الشعر عندهم محصوراً في ترانيم التقديس (الشعر الديني). وعلى نحو ما وضع العلماء العرب موسوعات تؤرخ لدراساتهم الأدبية واللغوية، كذلك ظهرت مصنفات للعبران تحاكي ذاك النمط من التأليف. وأهمها جهود الأديبين الشاعرين الناقدين «موسى بن عزرا» و «يهوذا الحريزي»، فللأول كتاب «المحاضرة والمذاكرة» الذي يبسط الحديث عن الأداب العربية والعبرية معاً، وبطريقة نقدية هي طريقة النقاد العرب، وسيما ابن سنان الخفاجي، وابن رشيق القيرواني. والثاني كان متَمَهّراً بوضع أفكاره بأسلوب المقامات(٣٤).

لقد كانت ثمرة التزاوج الذي حدث بين الثقافة العربية والعبرية إيجابية على كلا الفريقين، فتخفف العلماء المسلمون من أفكار المرحلة السابقة، التي كانت تعدّ التّلفُت إلى لغويات غريبة خارجة عن لغة القرآن الكريم ضرباً من مجانفة الصواب، وربما ضرباً من الإلحاد. والصلات القرابية اللغوية بين العربية والعبرية، أخذت نتيجة مساهمات اليهود تصبح من المشاع الثقافي، الذي لم يعد بوسع الكاتبين المتخصصين تجاهله، ولعل أبين دفع يمكن رصده في مكتوبات تلك المرحلة، قد جاء في القرن الخامس الهجري على لسان فقيه الأندلس وزعيم المذهب الظاهري هناك: ابن حزم ت٤٥٦هـ إذ نص في أكثر من موضع من كتبه على علاقة القربى بين اللغات السامية، ومنه قوله في كتاب (الإحكام) «إلا أن الذي وقفنا عليه، وعلمناه يقيناً، أن السريانية والعبرانية والعربية، التي هي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير، واحدة، تبدلت بتبدل مساكن أهلها. فحدث فيها جرس كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نغمتها... ومن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها، إنما هو من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان، واختلاف البلدان، ومجاورة الأمم، وأنها لغة واحدة في الأصل»(٣٥).

وقد مضى بصدر البحث كلام يثبت انتشار التوراة بترجمات مختلفة بين عرب الأندلس وعرب

المشرق على السواء، وخصوصاً في القرن الرابع الهجري. وفي رسائل ابن حزم اقتباسات متنوعة من ترجمات مختلفة، كان يشير إليها بعبارات مثل في (إحدى النسخ)، ويكفي أن نشير هنا إلى الرسالة المهمة في الرد على ابن النغريلة اليهودي، وفيها ما يدل على الحظوة التي كانت لليهود، فكانوا يتطاولون حتى على كلام الله بالتجريح، مما دفع ابن حزم للرد عليهم بعبارات موجعة، ومن ذلك قوله عن ابن النغريلة: «ولكن هذا الوقاح المجنون لو تدبر ما في كذبهم المفترى الذي يسمونه «التوراة» في السفر الثاني منه أن الله قال لموسى بن عمران: إني أرى هذه الأمة قاسية الرقاب، دعني لأعقب غضبي عليهم، لأهلكهم، وأقدمك على أمة عظيمة، ثم ذكروا أن موسى عليه السلام دعا ربه تعالى، وقال في دعائه: تذكر ابراهيم واسرائيل واسحق عبيدك الذين حلفت لهم بذلك[٣٦].

مقارنات في موضوع المعرب والدخيل من الألفاظ

مع مطلع القرن السادس الهجري نشط الفكري اللغوي العربي إلى بحث لغويات مقارنة ومقابلة على السواء، وساهم في ذلك لغويو الشطر الشرقي وأيضاً الشطر الغربي، وكان الجهد عند الجميع موجهاً بالدرجة الأولى نحو تفسير لغز عروبة ألفاظ العربية، وبيان صحة نقائها من عدمه (المعرب والدخيل) فأخذت تظهر مؤلفات متخصصة في هذا الجانب، على نحو ما هو عند الزمخشري الذي وضع كتاب «الأدب» على صفة قاموس عربي فارسي والجواليقي، الذي وضع كتاب «المعرب» وأبي حيان الأندلسي الذي وضع كتابين هما: «الإدراك للسان الأتراك» و«نور الغبش في لسان الحبش» والشهاب الخفاجي في «شفاء الغليل» والسيوطي في «المهذب»، وهكذا....

ولا يخفى أن جميع هذه الأبحاث هي من صميم فقه اللغويات المقارنة، والخوض فيها يعد نقلة نوعية في تاريخ المدرسة اللغوية العربية، لأن البحث فيها لم يبق محصورا في إطار اللغة العربية نفسها، وإنما تعداها إلى مسألة الاعتراف بأن لها وشائج قربى بغيرها من اللغات المجاورة أو غير المجاورة، الحيّة أو البائدة. ومن اللازم الإشارة هنا إلى أن مساهمات علمائنا الأوائل لم تزد في هذا الباب على حد إثبات أعجمية الألفاظ، وذكر اسم اللغة المقترض منها، وبإشارات قصيرة ومقتضبة، ولم تكن الأعجميات التي دخلت اللغة العربية في تراثها الشعري أو الأدبي هي أول ما توقف عنده السلف الكرام، ففي الأدب الجاهلي، وفي أدب صدر الإسلام، وفي أدب دولة بني أمية، في كل ذلك توجد ألفاظ عديدة، لا علاقة لها بمتن العربية الطبيعي، وبعض تلك الألفاظ كانت متداولاً بكثرة، ومع ذلك لم تسترع اهتمام اللغويين، ولم يخفّوا الى بيان الرأي فيها، ولا نعرف أنهم صاروا يخوضون فيها إلا متأخراً.

والثابت أن أبحاث فقه اللغة الأولى كانت موجهة نحو إعجاز القرآن الكريم، ونحو، حل لغز عروبة ألفاظه. وعلى حين نراهم مجمعين على أن في القرآن مسميات عَلَميّة غير عربية مثل: «ادريس واسرائيل وإلياس ويأجوج وموسى ومريم»، نراهم في غير هذه الأعلام منقسمين ومتخالفين في الاجتهادات.

ومن الثابت أيضاً أن بحث عروبة ألفاظ القرآن قد ابتدأت مبكرة منذ جيل الطبقة الأولى زمن ابن

عباس وابن مسعود، وأبي موسى الأشعري، والحسن البصري، وسعيد بن جبير وغيرهم.. وقلما خلت مدونات القدماء من فقهاء ولغويين من بحث هذه المسألة.

وبالإجمال نقول لم يكن للدرس السامي المقارن حضور مباشر في ذهنية الأوائل، والمعلومات التي ساقوها عن الساميات في هذا المقام تؤكد على أنهم ما عرفوا أياً من اللغات السامية معرفة حقيقية، بل معرفة بثقافة عامة مبثوثة في ثقافة العصر، مؤداها أن معجمة ألفاظ الشريعة يليق بها النسب إلى فئة الكتابيين، وما دامت تقع في حقول الكتابيين فالأمر سيان، ولا يهم كثيراً إن كانوا عبراناً أم أحباشاً أو سرياناً، فجميع هؤلاء في المنظور الثقافي غير المدقق واحد. ولا ريب أن علماءنا الأوائل لم يكونوا مدققين في مسألة الألفاظ الدخيلة، وليس ذلك عن عيب فيهم، وانما لضيق الآفاق العلمية في هذا المبحث في العصور التي كتبوا فيها، فالمنهج التاريخي المقارن الذي هو أساس نظرية البحث في الدخيل؛ لم يأخذ منحاه العملي إلا في القرن الماضي، ولذا فقولاتهم في هذا المقام ينبغي أن تؤخذ مأخذاً استدلالياً لا حرفياً، على نحو ما سبق أن أشرنا إليه بخصوص ما أصابوه من معارف ثقافية من الساميين المجاورين.

وفي العادة أن تذكر اللغات السامية عند القدماء لتكون فقط محطة النسب الذي ترتد اليه فئة من غريب مفردات القرآن، وبلا أدنى تأصيل لغوي يشف عن الكيفية التي تسلكها تلك الألفاظ في رحلة الاقتراض، وفي الأمثلة أسفله صورة من معالجاتهم للموضوع.

الزقوم: «حبشية» وعن الليث قدم رجل من افريقية - الحبشة - فسئل عن الزقوم فقال: الزقوم بلغتنا الزبد بالتمر(٣٧).

الزيتون: قال الفراء سمعت رجلاً من أهل الشام، وكان صاحب تفسير قال: التين جبال بين حلوان وهمذان، والزيتون جبال الشام. وقيل: هما جبلان، يقال لأحدهما: «طور زيتا وللآخر: طور تيْنا، بالسريانية، فسميا بما ينبتان»(٣٨).

طالوت: «عبرانية وهو لقب لُقِبَ به لفرط طوله واسمه شاول بن أنبار بن ضرار»(٣٩).

فرعون: قبطية: «واسمه الوليد بن مصعب، وكنيته أبومرة، وقيل هو التمساح»(٤٠).

القسورة: «حبشية: وعن عكرمة القسورة بلسان الحبشة: الأسد، وعند غيره القسورة الرماة، والأسد بلسان الحبشة، عنبسة»(٤١).

موسى: «عبرانية، علم أعجمي لا ينصرف، وهو مركب من مو، وهو الماء في العبرانية، وشو، وهو الشجر، فلما عرّب أبدلوا شينه سيناً، وقيل من أوسيت، وقيل من ماس يميس، ووزنه فعلى، فأبدلت الياء واواً. وقيل معناه الجذب، لأنه جذب من الماء. وقال الليث اشتقاقه من الماء والساج»(٤٢).

الانجيل: «اسم كتاب الله المنزل على عيسى، وهو اسم عبراني أو سرياني وقيل عربي من مادة (آنجل)»(٤٣).

اسرائيل: عبرانية: «وهي لقب ليعقوب. وأصلها كلمة مضافة، لأن أسر معناه عبد، وإيل هو الله، فهو عبدالله، وقيل صفوة الله، وقيل سريّ الله، لأنه أسرى لما هاجر، وقيل في نطقها اسرايل،

واسرال، واسرائين، وقال أبو علي الفارسي. والعرب إذا نطقت بالأعجمي خلطت فيه»(٤٤).

إبليس: «معرب لا ينصرف. كان اسمه بالعبرانية: عزازير، ومعناه الحارث، وكنيته أبو مرة، وقيل أبو كردوس، وكان رئيس ملائكة الدنيا، وقيل: سمي ابليس لأنه أبلس من رحمة الله»(٤٥).

الإقليم: «واحد أقاليم الأرض: قال ابن دريد لا أحسب الإقليم عربياً، وقال الأزهري: وأحسبه عربياً لأنه مَقْلوم من الإقليم الذي يتاخمه، أي مقطوع»(٤٦).

البطريق: «بلغة أهل الشام القائد، معرب، وجمعه بطارقة، وهو بلغة الروم، وقيل: هو عربي وافق العجمي، لأنه معروف في لغة أهل الحجاز، وورد في شعر أمية بن أبي الصلت:

من كل بطريق لبطريق نقي الوجه واضح»(٤٧).

غساق: قال الجواليقي والواسطي: «هو الماء المنتن، وأصله بلسان الترك، وقال ابن بريدة: هو المنتن بالطخارية - نسبة إلى طخار ستان، وقال ابن عباس: هو زمهرير بارد يحرقهم كما تحرقهم النار، وقيل: هو ما يغسِقُ من صديد أهل النار، أي يسيل، وأصله بالرومية»(٤٨).

البرخ: «الكثير الرخيص بلسان عمان، وقيل أصله من العبرانية أو السريانية، وقد قال الراجز:

ولو يُقال برِّخوا لبرَّخوا لمار سَرْجيسَ وقد تَدَخْدَخوا

ومعناه ذلّوا، وقيل هو من النبطية، ومعناه برّكوا، وقيل أصله بالفارسية: البَرْخ، هو النصيب(٤٩).

وأكثر اللغات السامية حظاً في مسألة غريب الألفاظ عند القدماء هي: الحبشية والحميرية والسريانية والعبرية، والقدماء يخلطون كثيراً بين فئات الساميات الغربية الشمالية، فتسميات سرياني ونبطي وعبراني كلها ترد كما لو أنها ذات مدلول واحد، والخلط موجود بشدة في أحاديثهم عن الدخيل من ألفاظ اللغات الأخرى مثل: الهندية واليونانية، ويلحظ الخلط أيضاً في أحاديثهم عن لغات محيّرة، عندما ينسبون إلى لغات مثل لغة (زنجية، وافريقية، وسوادية، وعبدية، وبربرية وطخارية)، اللهم إلا ما كان من معالجاتهم للدخليل من لغة العجم الآريين والطورانيين، فهنا نجد تأصيلاً للألفاظ جيداً نوعاً ما. مما يشف عن درس لغوي معمّق في هذه النقطة بالذات. ولا غرابة فالثقافة الفارسية لغة أولئك العجم كانت حاضرة الوجود، وفارضة نفسها على الناس، وكثير من الكتاب في هذا الشأن، كانوا أصلاً من الخراسانيين الذين يلهجون بالفارسية كلغة سليقية، وبالعربية كلغة ثقافية، ومن هؤلاء: الجواليقي ت٥٤٠هـ، والكرماني ت٥٤٣هـ، والسهيلي ت٥٨١هـ، والواسطي ت٧٤٤هـ، والثعالبي ت٤٢٩هـ.

وعموماً كانت طرائق القدماء البدائية في معرفة الدخيل، اذا ما انتهت بهم إلى أن لفظة ما دخيلة، فعند ذلك لا يهم التدقيق من أين جاءت، ولا في أي عش باضت. وتعيين تسميات للغات المُقرضة كان - فيما نعتقد - مسألة ظنية ترجيحية، وذلك عندهم غرض ثانوي محض، والتدقيق في الأغراض الثانوية لا يكون في العادة محورياً ولا جوهرياً، وهم بعد لم يكونوا على علم رصين بتلك اللغات الغريبة، ونحن نحتاط في هذا المقام من اغتياب السلف، أو من الطعن عليهم بالشائنات، ومعاذ الله أن يكون فينا من ذاك شيء مقارب، فلهم فضل الريادة، وفضل توجيه البحث اللغوي العربي وجهة جديدة، ومهمة في تاريخ مسألة التأثير والتأثر بين اللغات عموماً، وهذه نقطة جديرة بعناية الباحثين، وجديرة بتسليط الضوء عليها، ونخال أن الدرس اللغوي العربي هو الركيزة الأولى في هذا الموضوع عالمياً.

مقارنات في موضوع تأصيل الألفاظ واشتقاقها وصوتياتها

يدرك كل من له صلة بموضوعات اللغويات العربية التقليدية أنها كما هو الشأن في لغويات اليونان والرومان القدماء. كانت تقوم على ثلاثة أركان رئيسية هي: النحو والصرف والاشتقاق (الأجرومية والمورفولوجية والايتمولوجية) والاهتمام من هذه الأركان كان موجهاً عند الجميع بالدرجة الأولى إلى النحو، وذلك لأن ثمرته عملية، تفيد في تصحيح النطق وفي ضبط الكتابة، فأما الموضوعان الآخران فهما في المكتوبات العربية الأولى متداخلان كما لو أنهما موضوع واحد، والاعتناء بهما ثانوي، وذلك لأن ثمرة الخوض فيهما ليست عملية، فلا يترتب على تحليل الكلمة ضبط لسان أو قلم. وتحليلها يكون لغرض فهم البنية فيها، وهو ما عناه القدماء في حديثهم عن الصرف بمعناه العلمي «علم بأصول يعرف بها أحوال أبنية الكلم التي ليست بإعراب ولا بناء، وهذا التصور هو أيضاً المفهوم من مصطلح (مورفولوجي) في درس اليونان والرومان من بعدهم. على أن المدرسة الأوروبية تفصل بوضوح تام بين مادتي الصرف والاشتقاق، وليس أحدهما فرعاً من الآخر بل كل رأس قائم بمفرده.

ومن الثابت أن اللغويين العرب القدامى قاموا بتحليل نظام الجملة العربية، ووضعوا ما وضعوه من قوانين وقواعد في هذا المجال، ومن غير استعانة مباشرة ولا غير مباشرة بمنهج الدرس التطوري المقارن. وكان من شأن غياب تلك المعرفة أن حُلّل نظام الجملة العربية بخلفية ثقافية محلية، وهي خلفية تتكىء من جهة التوصيف على أسلوب المعيارية، ومن جهة التحليل على نظرية العامل الشهيرة. ولسنا هنا بمقام تخطئة تلك المنهجية أو تصويبها، ولكننا نؤكد أن لو درست مسائل النحو عند أولئك العلماء المهرة، في فنون النظر والقياس والتأويل بالمنهجية التاريخية المقارنة، أو على الأقل بمنهجية أبحاثهم في الأدب والنقد، لأمكن ولا ريب الاهتداء إلى تحليلات لغوية أكثر إقناعاً، وأكثر توصيفاً لحقائق اللغة، وقد نمثل في هذا المقام بمسائل التنويعات في مطابقات العدد والجنس بين أجزاء الجملة، والتنويعات في نظام الحالات الإعرابية.

وملحوظتنا عن بحث القدماء للجملة تصدق تماماً على بحثهم لنظام التصريف في الكلمات المفردة، حيث دُرست كذلك باعتبارها معزولة ومقطوعة النسب عن أية لغات أخرى، ويتضح ذلك بصورة جلية في معالجاتهم لمسائل التصريف العملية، وهي التي فيها يتم (تحويل الأصل الواحد الى أمثلة مختلفة لمعان مقصودة لا تحصل إلا بها)، كاسمي الفاعل والمفعول، والتثنية والجمع الى غير ذلك مما هو مخصوص بطوائف معينة من الكلمات دون سواها. فالأسماء المعربة والأفعال المتصرفة تقعان في ميدان علم التصريف، بينما الأدوات، والحروف، وأسماء الأفعال، والأفعال الجامدة، وفئة الأسماء الأعجمية لا دخل لعلم الصرف القديم بها، ومثل هذا التوجه في درس الكلمات لا نجده في لغويات الأمم الأخرى، فليس من منهج بحث الكلمات عند الآخرين، دراسة طوائف من المباني وإعراض عن طوائف أخرى، وإنما جميع الكلمات داخلة في ميدان علم الصرف.

ولا يخفى أن في هذا المنحى من الدرس الصرفي العربي إشارة أكيدة على أنه علم ذاتي التكوين، وداخلي المعالجة، ولا يخرج عن إطار العربية نفسها، على أن المقارنة بالساميات مفيدة جداً في مقام

درس الكلمات، والحاجة إليها هنا أكثر من الحاجة إليها في درس التراكيب. فعلى سبيل المثال يمكن بالدرس المقارن تقديم تحليلات أحسن لأجناس الكلمات التي عولجت باختراع فكرة (الإلحاق)، وكذا تفيد الدراسات المقارنة في تحليلات أحسن لفكرة التعدد في الأبنية الصرفية: أبنية الأسماء المجردة، وأبنية المصادر، وأبنية الصفات، وأبنية جموع التكسير.

أما تأصيل الألفاظ واشتقاقها فله تاريخ مطول في الدرس اللغوي العربي، وبذوره الأولى ملحوظة بلا شك في جهود ابن عباس ت٦٨هـ، اذ هو أول فقيه لغوي تنسب إليه مساهمات في تأصيل ألفاظ لغوية عربية قرآنية وغير قرآنية، وظل يتكىء على جهوده في تتبع أصول الألفاظ، وجهود تلامذته أمثال: ابن جبير ت٩٥هـ، ومجاهد ت١٠٤هـ، والضحاك ت١٠٥هـ، معظم لغويي القرون اللاحقة، أمثال: الخليل ت١٧٦هـ، وابن قتيبة ت ٢٧٦هـ، وابن دريد ت ٣٢١هـ، والجوهري ت٣٩٨هـ، مع عدم إغفال أن لكل واحد من هؤلاء نظرات ناقدة من عنده، ولكن منهجية التحليل واحدة، وإطارها العام يقوم على تلمس مادة أساسية (الجذر) وهي ثلاثية الصوامت في الغالب، ومن ثم إجراء النسالة من تلك المادة الأساسية وفق أنظمة صرفية مطواعة جداً، ومعيارية بدرجة عالية.

وليس ثمة مشكلة في تأصيل المباني الصرفية ذات الأرومة العربية بهذا الفقه من التحليل اللغوي، فالأمور في هذا الاتجاه مقننة جداً، وسهلة ويسيرة في التعليم والتعلّم.

ولكن المشكلة تكمن في تأصيل الغريب والأعجمي من الألفاظ، حيث يمكن الجزم بأنه ليس في مكتوبات العرب القدماء تأصيل حقيقي، لهذين النوعين من الألفاظ، بالمفهوم الحقيقي للتأصيل، كما هو في الدراسات اللغوية المعاصرة. ومن أمثلة الشرح والتأصيل، الزائفين ما نورده من قولاتهم عن المفردات الآتية:

مكة: « عن مجاهد قال: بكة البيت، وما حواليه " مكة، وإنما سميت بكة لأن الناس يبك بعضهم بعضاًفي الطواف، وقيل بكة: ما بين الجبلين، وفيها يبك الرجال والنساء ولا يضر أحد أحداً،وقيل: تبك الجبابرة العتاه" (٥٠). ولنا أن نشير الى أن لفظ مكة لا وجود له في الشعر الجاهلي رغم حفاوة ذاك الشعر الشديدة بذكر الأماكن الجغرافية، وليست علاقة مكة ببكة إلا مثل لازم ولازب لقرب المخرجين».

قريش: «قيل لابن عباس لم سميت قريش قريشاً، قال بأمر بين مشهور بدابة في البحر تسمى قريشاً، والدليل على ذلك قول تبع.

وقريش هي التي تسكن البحر يهـــا سميت قريش قريشـــا
ولـــهم آخر الزمـــان نـــبي يكثر القتل فيهم والخموشا»(٥١)

بسم: «هو عيسى ابن مريم، ولما أسلمته أمه إلى الكتاب ليعلمه، قال له المعلم، أكتب (بسم) فقال عيسى وما بسم؟ فقال له المعلم: ما أدري فقال عيسى: الباء بهاء الله، والسين سناؤه والميم مملكته»(٥٢).

دجاجة: عن ابن سيدة "وسميت الدجاجة لإقبالها وإدبارها، يقال دج القوم إذا مشوا بتقارب خطو" (٥٣).

السكين: «من قولهم ذبحت الشيء حتى سكن اضطرابه، وقال ابن دريد لعلها من السريانية ولا سيما لافتقاره في العربية لجذر اشتق من معناه»(٥٤).

القلم: «عن ابن عباس قال: أول ما خلق الله من شيء القلم، خلقه من هجاء، قال: فتصور قلماً من نار طوله ما بين السماء والأرض، وقيل لأعرابي ما القلم، قال لا أدري، فقيل له توهمه، فقال: هو عود قلم من جانبيه مثل تقليم الأظفور»(٥٥).

ولعله من الواضح أن فتاوى أئمة العربية القدامى عن الألفاظ أعلاه لا تنتمي أبداً إلى الصحة العلمية، وهي أصلاً ليست فتاوى لغوية البتة، والذهنية التي تقف وراءها إنما كانت - فيما يبدو - تنطلق بعقلية الإخباريين من أهل الأسمار المُسلّية، والقصص الظريفة، ويمكن للمرء أن يستطلع نماذج أخرى من هذا الإرث في تحليلات القدماء لألفاظ غريبة جداً مثل (الظنبوب، والحيهلة، والفِطَحْل، وبرهوت، ومأموسة)، فانظرها في التهذيب والجمهرة واللسان.

على أنه تظهر في المكتوبات القديمة، وخصوصاً مكتوبات المدرسة المعجمية، إشارات تأصيلية تنم عن ثقافات بلغات الأمم الأخرى، مما يمكن عدّه ولو تجوزاً درساً مقارناً، ولذا نتوقف عندها فهي محط عنايتنا في هذا البحث، ونحن هنا نركز على الثقافات السامية وحدها، ويمكن توزيع المسائل في هذا المقام على نوعين من المقارنات: العربية باللغات السامية الشمالية، والعربية باللغات السامية الجنوبية.

مقارنات لغوية بين العربية واللغات السامية الشمالية

الأرس: لغة شامية، قال الأزهري هم فلاحو السواد، وفي رسالة معاوية إلى قيصر الروم. "لئن تَمَّمْتَ على ما بلغني، لأصالحن صاحبي، (أي عليّ رض)... ولأردنك إرِّيسا من الإرِارسة ترعى الدوابل" (٥٦)، وهي اشتقاق من اسم الذات الدال على الأرض في الساميات الغربية على معنى الفلاح. وإشارة القدماء عن اللفظة بأنها من لغة السريان أو العبران(e r e s) لم تعد محلها. وهي في الآرامية (أرْعا) (أي بالعين بدلاً من الصاد).

الناطور: "من كلام أهل السواد وهو حافظ الزروع"، وقال بعضهم: ليست عربية محضة، وهذه مقارنة سامية صائبة. فالظاء لا توجد في اللغات السامية الغربية - عبرانية سريانية - فإذا وقعت في كلامهم قلبوها طاءاً، وكذا العكس في لغتنا العربية، وقد لقف الأصمعي ت٢١٥هـ ذلك مبكراً لما ذكر أن (البرطلة) عند النبط هي (ابن الظل) عند العرب و(الناطور) هو (الناظور)، وهو وزن فاعول السرياني المشهور(٥٧).

محزرق: وردت في بيت للأعشى (حتى مات وهو محزرق) برواية أبي زيد الأنصاري، وُمحرزق بتقديم الراء، برواية أبي عمرو الشيباني، وقد وُصفت بأنها لفظة نبطية، وقال المؤرج السدوسي "النبط تسمى المحبوس مهزرقاً بالهاء، والحبس يقال له هَزْروقي" (٥٨).

فذاك وما أنجى من الموت ربّه بساباط حتى مات وهو محزرقُ

ويعنينا هنا محاولة اللغويين العرب الاستعانة بلغة النبط في تأصيل اللفظة وشرحها، لأن في ذلك إشارة إلى مقارنات سامية.

ولنا أن نشير في هذا المقام إلى مسألة شبه متواترة في معالجة القدماء للألفاظ الأعجمية، ومعها الألفاظ الغريبة على السواء؛ وتلك هي مسألة التسليم بقول العالم المتقدم، واتخاذه حجة، ولذا تتوالى

المقولة نفسها، وتأخذ مصداقيتها عند اللاحقين، لا من صدقها العلمي في ذاتها، بل من تواترها بالنقل عن الإمام اللغوي السابق، فما دام قالها فهو أدرى بها، واللاحقون له فيها تَبَعٌ وكنا قبلاً أوردنا إماءة كهذه، لدى الحديث عن التوثيق العلمي في المعارف الحضارية غير اللغوية. فعلماء السلف هنا وهناك يقرأون كثيراً بعين غيرهم.

وأكثر مقارنات العربية نجدها عند القدماء موصولة بلغة النبط، والنبط هنا هم السريان المشتغلون بالفلاحة أو بالحرفيات، وهم غير نبط البتراء الذين ظهروا كقوة سياسية على مسرح الأحداث من (٣٠٠ق.م-١٠٦م) عندما قوض الرومان ملكهم. ويعتقد أكثر الباحثين المعاصرين المدققين، أنهم هم الذين أعطوا الخط للعرب. وكانت الآرامية هي اللغة التي استعملها النبط في حياة تمدنهم، وكانت تلك هي لغة الثقافة والمراسلات الدولية في الشرق الأدنى القديم، وتظهر حلقة الوصل الأولى في الخط العربي في خمسة النقوش العربية المدونة بالنبطي المتأخر (نقش النمارة (٣٢٨م)، وأم جمال (٢٥٠م) وزبد (٥١٢م) وحران (٥٦٨م) وأم الجمال الثاني (٦٠م)م وهؤلاء النبط الذين يذكرون في المكتوبات العربية هم السريان الذين كانوا مستوطنين في البلاد الشامية والعراقية، وقد انتهوا بعد مجد مؤثل لهم، في الرها وحران وغيرهما من عواصمهم المهمة إلى أن أصبحوا في القرن السادس الميلادي سكان قرى فلاحين، وطبقة من العمال المهرة الحرفيين، وتحولت منطقتهم إلى منطقة لغوية عربية، الا من بعض الجزائر اللغوية المعزولة، التي لم تستعرب، وظلت تلهج بلسان سرياني مكسور غير مستقيم اللفظ، وأولئك هم الذين ورثوا لقب نبطي في مكتوبات العرب الأولى، وصار يشار إليهم على أنهم طبقة دونية في المجتمع الإسلامي الجديد، وعن هؤلاء يذكر المسعودي «وكان أهل نينوي ممن سمينا نبيطاً وسريانيين والجنس واحد في لغتهم والمقالة واحدة[٥٩].

ولا نجد العلماء العرب يدققون في هذه النقطة من أمر النبط (السريان) لأنها من قبيل القصص الإخباري، والعناية بالتمحيص في الأمور الإخبارية العامة لم يكن شيئاً مهماً عندهم، ولذا لا عجب أن تظهر الثقافات السامية هنا ممزوجة بالأفكار العربية.

والظاهر ان طبقة أهل القرى منهم قد بقوا على سريانيتهم، وإن تعلموا الى جانبها لسان العربية، ولكن تعلمهم للعربية يبدو أنه كان ضعيفاً، فإلى القرن العاشر نجد الرحالة المقدسي يتحدث عن إقليم العراق فيقول «وأما البطائح فنبط لا لسان ولا عقل " [٦٠]. ونسوق نصوصاً مقتضبة تشير إلى صلات نَسَبية بين النبط والعرب:

- «عن أبي عبيدة أنه سمع علياً كرم الله وجهه «يقول من كان سائلاً عن نسبتنا، فإنا من نبط كوثى، وكوثى هي سرة السواد، وأراد أن ابراهيم كان من نبط كوثى، وأن نسبنا إليه»[٦١]. ونحو ذلك عن ابن عباس: «نحن معاشر قريش حي من النبط من أهل كوثى». وعن المسعودي، «والعراق من أشهر وأشرف المواضع التي اختارها ملوك الأمم من النماردة. وهم ملوك السريانية، الذين تسميهم العرب بالنبط»[٦٢].
- وفي كتب الموسوعات العربية ترد إشارات مركزة على اللغويات الصوتية المقارنة بين أولئك النبط وبين العرب. «وقد يتكلم المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة، ويكون لفظه متميزاً فاخراً، ومعناه شريفاً كريماً، ويعلم مع ذلك السامع لكلامه، ومخارجه حروفه، أنه نبطي»[٦٣].

❖ ويشيع في الكتب اللغوية الأولى أيضاً مصطلح (اللكنة) على حالات إدخال بعض حروف العرب في حروف هؤلاء النبط العجم من سكان الشام والعراق، والمشهور هنا من حروف اللكنة حرفان مهمان، وهما: الحاء والعين، وثمة شخوص كان يكثر نسبة هذا النوع من اللحن إليهم، أبرزهم: عبيدالله بن زياد، وصهيب الرومي، وأبوعطاء السندي، وزياد الأعجم(٦٤). ولا شك أن هذه العيوب النطقية، الناجمة عن اختلاف في مخارج أو صفات الحروف، من لغة إلى اخرى؛ تعد من صميم الدراسات الصوتية المقارنة، وهي من أكثرها شداً للانتباه، وربما كان ذلك أكثر ما استهجنه العرب من الغريب الذي يحاكي لغتهم؛ ولذا أظهروا المسائل هذه في مكتوباتهم.

وقد تنبه اللغويون العرب كما هو معلوم أيضاً إلى مسائل من هذه المقارنات الصوتية اللافتة للنظر بين العربية ولهجاتها المتحدرة منها نفسها، ودرسوا ذلك تحت مسميات مثل: اللهجات المذمومة، ونصوا في توضيحها على أنها تلك التي ترفعت عنها اللغة الفصحى، فلم تجز النسج على منوالها. وقد كان الذم في تلك اللهجات موجهاً إلى عاداتها الكلامية في مجال الأصوات بخاصة.

ولم نلحظ أنهم توقفوا عند تراكيب مذمومة، وسبب ذلك راجع إلى كون القوالب النحوية غير مختلفة ما بين فصيح وعامي، كما أنه لا دخل لآلة النطق عند الإنسان (اللسان) بكيفية نظم المفردات وترتيبها، لأن ذلك من وظيفة الذهن وحده. وهناك دخل بالتأكيد للسان في كل عمليات الإخراج الخاصة بمباني الألفاظ ومنطوقاتها.

ويؤثر في هذا المقام ظواهر لغوية لها قوانين معروفة مثل: النبر، وتجاور الأصوات، وسرعة النطق، والوضوح السمعي، والمماثلة والمخالفة وغير هذا من مفاهيم، أو موضوعات الألسنية المعاصرة. وأبرز العيوب الصوتية الصرفية التي أشار القدماء اليها: الاستنطاء، والعنعنة، والتلتلة، والكشكشة، والشنشنة، والطمطمانية، والعجعجة، والفحفحة، والوتم، والوهم، والقطعة واللخلخانية، والمد والقصر، والقلب المكاني(٦٥).

مقارنات بين العربية واللغات السامية الجنوبية

المقارنات السامية الملحوظة هنا محصورة بين العربية الشمالية ممثلة في الفصحى، والعربية الجنوبية ممثلة في الحميرية. ولعل تعيين الحميرية عند القدماء بالاسم يعود الى أنها كانت لغة حية حتى بداية القرن السادس الميلادي، فبرغم أن العربية الشمالية كانت قد هبطت إلى اليمن مع بدايات ذاك القرن، إلا أنها لم تستطع أن تخلي الحميرية من جميع مواقعها، وظلت مخاليف في بلاد المهرة والشحر عصية على التعريب، كما هو حالها لليوم، وكذلك يرد على الذهن هنا ظاهرة الرواسب اللغوية الحميرية تلك التي ظلت عالقة بالبطون اليمانية المهاجرة إلى الشمال، ونحن هنا نستثني القبائل التي هاجرت زمن عز اليمن، وكانت تقوم بوظيفة الحاميات العسكرية على خطوط التجارة من اليمن إلى الشام والعراق، وتوطنت شمالاً، وظلت قبائل مهمة من الناحية السياسية حتى بعد زوال عرش اليمن مثل: كندة، والأوس والمناذرة، والغساسنة، فكل هؤلاء لا نعرفهم في تاريخهم البارز إلا قبائل متحدثة بلسان عرب الشمال، كغيرهم من القبائل النجدية أو الحجازية، ولذلك يكون المراد باليمانية في

أحاديث اللغويين العرب قبائل اليمن العربية، سواء بأرض اليمن نفسها أم ببلاد الفتوح الإسلامية، وهؤلاء هم الذين علقت بألسنتهم العوالق من اللغة الحميرية الأولى(٦٦)، وقد آل الأمر بالنسبة لعرب اليمن في بلاد الفتوح الإسلامية أن صاروا بمجموعهم قبيلة واحدة، فنراهم في تخطيط المدن مشتركين بمحلة خاصة بهم، ونراهم في تنظيم الجيش مشتركين براية خاصة بهم، ومن الطبيعي والحالة تلك، أن نرى لسانهم ينظر إليه كما لو أنه لهجة مستقلة كباقي اللهجات النجدية أو الحجازية، وكما في تلك اللهجات من عيوب مذمومة، ففي لسان عرب اليمن عيوب مذمومة أيضاً، ونحن إذ نتأمل تلك العيوب نراها واقعة في إطار المقارنات السامية بين عربية وحميرية.

❖ فمن العيوب الناجمة عن التأثير والتأثر بين الأصوات المتجاورة ظاهرة الكشكشة وفيها تقلب الكاف المجاورة صوت لين، إلى صوت آخر مزدوج من أصوات وسط الحنك، ولكون ذاك الصوت بلا رسم إملائي في كلام العرب، قرّبوه إلى صوت آخر له صورة إملائية وهو الشين، وما هو أصلاً بشين، ولكنه جماع ما بين صوت شديد وآخر رخو (تش)، ولهذا الصوت نظير في كثير من لغات العجم: في الألمانية في صورة (ch) وفي الفارسية في صورة (چ) وفي التركية في صورة (C)، وهو مسموع في اللهجات العربية الفلاحية المعاصرة، في نطق الكاف الواقعة أولاً أو طرفاً، اذا ما صحبت صوت لين قصيراً أو طويلاً في (كيف)، و(ربك)، ومنه في الحميرية.

❖ «وأهل الشحر» أناس من قضاعة وغيرهم من العرب، وهم مهرة، ولغتهم لخلاف لغة العرب، وذلك أنهم يجعلون الشين بدلاً من الكاف: هل لشي فيما قلت لش»(٦٧). وبسبب من صعوبات إملائية في الخط العربي ربما صورت الكشكشة في هيئة حرف الجيم (ك-ج) وهذا غير ممكن أصواتياً، ولكن الصوت الجديد قد قُرّب سماعاً إلى الجيم المعطشة. قال ابن بري: «ورد في حديث عائشة رضي الله عنها: استأذنت النبي عليه السلام في دخول أبي القُمير عليها، فقال إئذني له فإنه عمّج، فإنه يريد عمك من الرضاعة، فأبدل كاف الخطاب جيماً، وهي لغة قوم من اليمن(٦٨).

❖ وهناك ظاهرة الوتم للحالات الصوتية التي يقلب فيها صوت رخو الى آخر شديد رخو، فيُنْسَبُ إلى حمير أنهم يقولون: لا بات في لا بأس، ويزعم اللغويون أن قد ورد بذلك شعر حميري، برغم أنهم عرفوا حقيقة التباين بين اللساني المضري والحميري، «مالسان حمير وأقاصي اليمن لساننا، ولا عربيتهم عربتنا»(٦٩).

تنادوا عند غدرهم لباتِ   وقد بَرَدَت معاذِرُ ذي رُعَين

❖ وهناك ظاهرة اللخلخانية لحالات السرعة في النطق، وتغير موضع النبر، من مقطع الى آخر، ولذا قد تحذف بعض الأصوات، أو تتبادل مع نظائر أخرى. وتشرك حمير عرب مضر في الظاهرة في إبدال تاء ضمير المتكلم كافاً، وفي الوقوف على هاء السكت بالتاء «كما يستعمل أهل اللغة الحميرية «وثب» بمعنى جلس، وهي في عامة لغة العرب للأمر بالطفرة «وتبدل حمير كاف الخطاب شيئاً معجمة، فيقولون في قلت لك قلت لشي، وربما أبدلوا التاء أيضاً كافاً، فيقولون في قلت قلْكُ»(٧٠). «ودخل رجل من العرب على ملك من ملوك حمير، فقال له: ثبّ، فوثب فتكسر، فقال الملك: ليس عندنا عربيّتْ من دخل ظفار حمّر: أي تكلم بالحميرية، وقوله عربيت، يريد

العربية، فوقف على الهاء بالتاء وكذلك لغتهم»(٧١).

❖ وهناك ظاهرة التبادل بين أصوات مقدمة الفم، ومنها بخاصة التبادل بين الأصوات الجانبية والأصوات الخيشومية، ممثلة في صيرورة دالة التعريف من اللام إلى الميم، وسميت طمطمانية حمير، وعرفت في باب (ألقاب اللهجات)، بأنها يكون الكلام فيها مشبهاً بكلام العجم، ونذكر هنا أن مصطلح (العجم) يطلق في مكتوبات القدماء على كل ما هو غير عربي سواء استعارته العربية من أخواتها التي تشركها في العائلة السامية أم استعارته من اللغات البعيدة في النسب عنها، والأرجح أن مصطلح الطمطمانية ما كان مختصاً في أصل وضعه بالتبادل بين اللام والميم، لأنه يركز على صوت الطاء، وليس لهذا الصوت علاقة بأي من دوال التعريف المعهودة في اللغات السامية، ولا بد أن الظاهرة كانت متعلقة بنوع آخر من التبادلات الصوتية التي يكون للطاء فيها دور بارز، مثله في المفردات الأعجمية التي تتعرب بتحويل تائها المرققة إلى طاء مهموسة مفخمة، في (جرامطيقا، وفونوطيقا وسلطان وشيطان، وصراط، وأشباه ذلك) ثم توسع المصطلح ليدل على ظواهر حميرية شائعة بصورة أزيد من صورة التبادل بين التاء والطاء.

وأقوى تلك الصور - لا شك - استخدامهم الأصوات الخيشومية في التعريف، «قال شمر: سمعت حميرية فصيحة، سألتها عن بلادها، فقالت: النخل قلّ ولكن عيشنا امْقَمّح امفرسك امعنب امحماط، فقلت لها: ما الفرسك؟ فقالت: هو الخوخ عندكم" (٧٢).

وفي كتاب صفة جزيرة العرب للمهذاني نصوص عدة عن الظاهرة: «في بلد سفيان بن أرحب يقولون أم رجل في الرجل» (٧٣) وللظاهرة بقايا مسموعة لليوم في عربية اليمن، وسمعناها من بعض طلبتنا اليمانيين بجامعة اليرموك.

قداسة العربية ونقص المعرفة اللغوية بالساميات

من البين أن المساحة التي احتلها الدرس السامي في المكتوبات العربية القديمة لا تسمح بالحكم على مدى معرفة القدماء بذلك الدرس معرفة أكاديمية، فالإشارات التي ترد عرضاً هنا وهناك غالباً قصيرة وشمولية الطابع، والجانب اللغوي فيها ثانوي جداً، وليس له حضور مباشر، فلم نقف برغم مراجعاتنا المطولة على أن أحداً من القدماء قد نقل من تلك اللغات إلى العربية خطبة بليغة، أو شعراً حسناً، أو رواية من رواياتهم الأدبية، بل نراهم حصروا تلك الأجناس الأدبية في أنفسهم. ففيهم لا في غيرهم كل ما يصدر عن اللسان أو القلم من فصاحات أدبية.

وتفسير ذلك يمكن تلمسه في دواع عدة لعل أبرزها رغبة أهل الحل والعقد من المسلمين في التمكين للغة العربية الفصحى دون سواها؛ فتكون آلة الثقافة المُوَحِّدة لأمم إسلامية متعددة الألسنة، ولكي تكتمل لهم مقومات الأمة الرئيسية الثلاثة: وحدة الدين ووحدة السياسة «الدولة» ووحدة اللغة الرسمية. ويأتي وراء هذه الدافعية دوافع أخرى تخدم الغرض الأول ولا تناقضه، من ذلك حالة القداسة التي ظفرت بها اللغة العربية من الدين الإسلامي، حيث جرى الربط بين العروبة والإسلام، وبالتالي اقتضت ضرورة مدح الإسلام أن تمدح العربية، وضرورة ذم الكفر أن تذم اللغات الأخرى.

والشواهد هنا كثيرة جداً ونجتزئ منها ببعض صورها المميزة.

- في مقابسات التوحيدي ت ٤١٤هـ في الإجابة عن سؤال وجه لأبي سليمان، هل بلاغة أحسن من بلاغة العرب؟. «وقد سمعنا لغات كثيرة من أهلها، أعنى من أفاضلهم وبلغائهم، فعلى ما ظهر لنا وخيل إلينا لم نجد لغة كالعربية وذلك انها أوسع مناهج وألطف مخارج وأعلى مدارج وحروفها أتم وأسماؤها أعظم ومعانيها أوغل ومعاريضها أشمل، ولها هذا النحو الذي حصته منها حصة المنطق من العقل وهذه خاصة ما حازتها لغة(٧٤).
- وفي شهادة الاعتراف التي أدلى بها البيروني ت٤٢٥هـ في كتابه (الصيدنة) «ديننا والدولة عربيان توأمان يرفرف على أحدهما القوة الإلهية، وعلى الآخر اليد السماوية، وكم احتشد طوائف من التوابع، وخاصة منهم: الجبل والديلم، في إلباس الدولة جلابيب العجمة فلم تنفق لهم في المراد سوق، وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم. فازدانت وحلت في الأفئدة، وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة، وإن كانت كل أمة تستحلي لغتها التي ألفتها، واعتادتها واستعملتها في مآدبها. وأقيس هذا بنفسي وهي مطبوعة على لغة لو خُلّد بها علم لاستغرب استغراب البعير على الميزاب، والزرافة في الكراب، ثم منتقلة إلى العربية والفارسية، فأنا في كل واحد دخيل، ولها متكلف، والهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية».(٧٥).
- وفي المناكفة المذكورة في المثل السائر لابن الأثيرت ٦٢٤هـ، بينه وبين حبر من علماء اليهود نجد الصورة الآتية «حضر عندي رجل من علماء اليهود بالديار المصرية، فجرى ذكر اللغات وأن العربية هي سيدة هذه اللغات: فقال اليهودي: وكيف تكون كذلك، وأن واضعها تصرف في جميع اللغات السابقة فاختصر ما اختصر، وخفف ما خفف من ذلك: اسم الجمل فإنه عندنا في اللسان العبري كوميل، فجاء واضع العربية، وحذف من الكلمة الثقل المستبشع، وقال جمل، ولقد صدق والله في الذي ذكره " (٧٦).

بيد أن هذا الرأي الذي ينقل القداسة من الدين الى اللغة أو أناسها أو مكانها قاله العرب والعجم معاً، وقد هُجر ذلك المنهج، وانزاح من مساقات المدارس اللغوية الحديثة، فاللغات صارت تدرس بمعايير لغوية حسية، ويجري التفاضل بينها وفق تلك المعايير.

صفوة البحث: وبعد فالبحث ينتمي إلى فئة الدراسات اللغوية المعنية بتقديم صورة عن مسيرة التطور التاريخي للدرس العربي في مجال الساميات لغة وحضارة، فلا يزال هذا الباب مهملاً، ولا تتوجه الأنظار إليه كثيراً، ولا تزال القواعد اللغوية العربية تستنبط وتحلل على منوال خط الأئمة من علماء مرحلة التقعيد، معزولة أو شبه معزولة عن أية مرجعية تاريخية أو مقارنة، وليس لنا من حجة في إبقاء تلك الطريقة البحثية نفسها في دراساتنا المعاصرة وربما كان لزاماً علينا أن نعاود القراءة في واقع لغويات القدماء، فنعالجها من جديد، وفي ضوء ما صرنا نملك من مناهج جديدة، وفي ضوء هذه النظرة كان تعقبنا لما وضعه، وقال به أئمة العربية القدامى، عن صلة القربى بين العربية وغيرها من اللغات السامية.

وقد نُجمل صفوة لهذا البحث فنقول إن حركة الاستطلاع التي قمنا بها، تكشف أن علم اللغات

السامية له بدايات من نوع ما عند علمائنا الأوائل، ولكنهم لم يرتقوا بمعارفهم في هذا الحقل فيُصيّروا منها علماً قائماً بذاته، على نحو ما فعله الأوروبيون مؤخراً، فكان أن شاعت نسبة هذا العلم إليهم في معظم الكتابات المتداولة، ومن غير إشارات إلى بواكيره عند العلماء العرب.

ومساهمات العلماء العرب وإن كانت - في ضوء المنهج المعياري - تعد ساذجة وبدائية، ولا يعتمد عليها كحقائق علمية رصينة؛ فإنها - في ضوء المنهج التاريخي - تعد ثمينة جداً وتشكل حلقة أولى من حلقات البحث السامي المقارن، ويحسن أن ينظر اليها كما ينظر إلى الدَّفُور قبل الثَّمر.

وبقي التنويه بفضل المؤسسة الأكاديمية (DAAD)، فقد يسرت لي الإقامة الكاملة لمدة ثلاثة أشهر في جامعة «ايرلانجن» بألمانيا، وذلك أفادني حقاً في إتمام هذا البحث، وإخراجه إلى حيز الوجود، فلها الشكر وجزيل العرفان. ولأستاذنا الجليل «فيشر» Fischer بجامعة «ايرلانجن» خالص الشكر والعرفان أيضاً.

جريدة المراجع العربية

البداية والنهاية — ابن كثير، ت أبي ملحم وآخرين، بيروت، ١٩٨٥م.
الآثار الباقية عن القرون الخالية — البيروني، بيروت، د.ت.
الأثر العربي في الفكر اليهودي — ابراهيم (هنداوي)، الانجلو المصرية، مصر.
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم — المقدسي، ت محمد، ط. ليدن، ١٩٠٦.
الإحكام في أصول الأحكام — ابن حزم الأندلسي، مطبعة الإمام، مصر. د.ت.
الأخبار الطوال — الدينوري، ت. عبدالمنعم عامر، القاهرة، ١٩٦٠.
أخبار مكة — الأزرقي، ت. رشدي ملحس، بيروت، ١٣٥٢.
الاشتقاق — ابن دريد، ت. هارون. مصر ١٩٦٨م.
إعجاز القرآن — الباقلاني، ت. أحمد صقر، دار المعارف.
البين والتبيان — الجاحظ، ت. هرون، القاهرة.
تاريخ العرب — فيليب (حتي)، دار غندور، بيروت، ١٩٨٦م.
تاريخ اللغات السامية — ولفنسون، (اسرائيل)، بيروت، ١٩٨٠.
تأويل مشكل القرآن — ابن قتيبة، ت. أحمد صقر، عيسى الحلبي، مصر.
التحبير في علم التفسير — السيوطي، ت. فتحي فريد، الرياض، ١٩٨٢.
تفسير القرطبي «الجامع» — القرطبي، القاهرة، ١٩٦٧.
التنبيه والإشراف — المسعودي، دار التراث، بيروت، د.ت.
الحضارات السامية القديمة — موسكاتي، ترجمة يعقوب بكر، دار الرقي، بيروت.
الحياة مع لغتين - الثنائية اللغوية — محمد علي (الخولي)، الرياض ١٩١٨م.
حياة الحيوان الكبرى — الدميري، المكتبة الإسلامية بيروت.
خزانة الأدب — البغداد، ت. هرون، القاهرة.
دراسات في فقه اللغة — صبحي (الصالح). دار العلم، بيروت، ١٩٦٠.
درة الغواص في أوهام الخواص — الحرير. ت. محمل أبوافضل، دار النهضة، مصر.
الرسالة — الشافعي. ت. أحمد محمد شاكر، القاهرة، ١٩٤٠.
رسائل ابن حزم — ابن حزم، ت. احسان عباس، بيروت، ١٩٨١م.
الروض الأنف في تفسير سيرة ابن هشام — السهيلي، دار المعرفة، بيروت.
الساميون ولغاتهم — حسن (ظاظا)، مكتبة الدراسات اللغوية، مصر ١٩٧١.
شذرات الذهب في أخبار من ذهب — ابن العماد، الأرناؤوط، بيروت ١٩٨٨م.
الصاحبي في فقه اللغة — ابن فارس. ت. الشويمي، بيروت، ١٩٦٣.
صبح الأعشى في صناعة الإنشا — القلقشندي، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٠.
صفة جزيرة العرب — الهمذاني ت. محمد النجدي، القاهرة ١٩٥٣.
الطبقات الكبرى — ابن سعد، دار صابر، بيروت. د.ت.

علم اللغة العربية، مدخل تاريخي مقارن	محمود فهمي (حجازي) الكويت، ١٩٧٣.
علم اللغة	علي عبدالواحد (وافي) القاهرة، ١٩٦٢.
عيون الأنباء في طبقات الأطباء	ابن أبي أصيبعة، ت. نزار رضا، دار الحياة، بيروت.
الفصل في الملل والأهواء والنحل	ابن حزم الظاهري، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
فقه اللغة	علي عبدالواحد وافي، القاهرة، دار النهضة.
فقه اللغة العربية	كاصد (الزيدي)، جامعة الموصل، ١٩٨٦.
الفهرست	ابن النديم، دار المعرفة، بيروت.
في اللهجات العربية	ابراهيم أنيس، القاهرة ١٩٧٣.
كتاب العين	الخليل بن أحمد، ت. المخزومي والسامرائي، بيروت.
لحن العامة في ضوء الدراسات الحديثة	عبدالعزيز (مطر)، دار المعارف، ١٩٨١.
اللغة	فندريس، تعريب الدواخلي، والقصاص، مصر، ١٩٥٠
لغات البشر	ماريوباي، ترجمة صلاح العربي، القاهرة، ١٩٧٠.
اللغات السامية	نولدكه، ترجمة رمضان عبدالتواب، القاهرة، ١٩٦٣.
المثل السائر	ابن الأثير ت. طبانة والحوفي. دار النهضة، مصر
المدخل الى علم اللغة	رمضان عبدالتواب، الخانجي، مصر، ١٩٨٥.
مروج الذهب	المسعودي، يوسف داغر، دار الأندلس، بيروت.
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان	ابن الجوزي. ت. اسحان عباس. بيروت. ١٩٨٥.
المزهر في علوم اللغة وأنواعها	السيوطي، ت. أبو الفضل مصر. د.ت.
المعرّب في الكلام الأعجمي	الجواليقي، ت. أحمد محمد شاكر، دار الكتب القاهرة.
مقدمة في فقه اللغة العربية	لويس عوض، القاهرة، ١٩٨٠م.

المراجع الإفرنجية:

Crystal (D).	Eiführung in die Linguistik. Stuttgart 1975.
Hecker (K)	Grundriss der arabischen Philolgie, Band I: Das Arabische im Rahmen der semitischen. Wiesbaden. 1983.
Lyons (J)	Einführung in die moderne linguistik, München. 1984.
Reckendorf (H)	Zur Charaktaristik der semitischen Sprachen. Congres des orientalistes. Leyde 1896.
Robins. (R)	General Linguistics: An introductory Survey. Longman, 1971.

الهوامش

(١) انظر في موضوع اللغويات التاريخية المقارنة: علم اللغة العربية، حجازي ص١٢٦، ولغات البشر، ماريوباي. ص٦٢، واللغة، فندريس ص٣٧٥، والمدخل إلى علم اللغة، رمضان عبدالتواب ص١٩٦. وانظر من المراجع الأجنبية.

Robins, General Linguistik. p.5 - Lyons, Einführung in die moderne linguistik, p.24.

(٢) انظر في موضوع نشأة اللغة الانسانية: فقه الغة العربية، كاصد الزيدي ص٣١، وانظر المراجع التي يحيل اليها بالحواشي.

(٣) انظر في الموضوع: لغات البشر ص١٧، اللغة ص ٢٩٥ وانظر: Robins, P. 34,. Lyons. 45.

(٤) انظر في موضوع فصائل اللغات بعامة: دراسات في فقه اللغة، صبحي الصالح. ص٤٥، وعلم اللغة العربية، حجازي ص٩٧، وفقه اللغة العربية، الزيدي ص٥٩، وعلم اللغة، على عبدالواحد وافي ص١٧٩. Crystal, Enführung in die linguistik. z. 123, Lyons. z. 23.

(٥) انظر التوراة سفر التكوين الإصحاح العاشر، جدول أنساب الشعوب.

(٦) انظر في موضوع تقسيم البشر عند الهنود: مقدمة في فقه اللغة العربية، لويس عوض ص٤٠.

(٧) انظر اللغات السامية. نولدكه ص١١، ولغات البشر ص٧٤، واللغة ص٢٩. والساميون ولغاتهم، حسن ظاظا ص٦.

(٨) انظر: فقه الغة العربية. الزيدي، ص٧٣.

(٩) انظر في توزيع اللغات السامية: تاريخ اللغات السامية. ولفنسون ص١١٧، ودراسات في فقه اللغة ص٧٠، والحضارات السامية القديمة، موسكاتي ص٤٢، والعربية في إطار اللغات السامية. مقالة فيشر، الحوليات التونسية عدد ١٩٨٤/٢٣. و

-Hecker. Grundriss der arabischen Philologie, wiesbaden, 1983 I-z.6.
-Soden. Die Einteilung der semitischen Sprachen. W.Z.K.M. 56. 1960. z.177.
-Reckendorf. Zur Charakteristik der semitischen Sprachen Actes du xe Congres des Orientalistes. 3e partie, Leyde, 1896. z. I-9.

(١٠) انظر في موضوع الموطن الأول للساميين، وفي تاريخ الهجرات السامية: تاريخ اللغات السامية. ص٤، واللغات السامية ص٦٠، وتاريخ العرب، فيليب حتي ص٣٥، وفقه اللغة، علي عبدالواحد في ص١٠.

(١١) انظر تفاصيل قصة أصحاب الأخدود في تفسير القرطبي ٢٨٧/١٩.

(١٢) انظر في موضوع ما تعلمه زيد من اللغات: طبقات ابن سعد ٣٥٨/٢، التنبيه والإشراف. المسعودي ص٢٤٥. صبح الأعشى، القلقشندي ٢٠٢/١.

(١٣) انظر خبر بشر الكندي في: الاشتقاق ابن دريد ص٣٧٢، الفهرست، ابن النديم ص٦. صبح الأعشى ١٤/٣.

(١٤) انظر في الموضوع: المدخل إلى اللغة السريانية. احمد هبو، ص٧، مجلة المجمع السرياني، مقالة بين العربية والسريانية، المطران اندراوس صنا، ج١، سنة ١٩٧٥.

(١٥) انظر في الموضوع: علم اللغة، علي عبدالواحد في فصل صراع اللغات ص٢٢٩، والحياة مع لغتين - الثنائية اللغوية - محمد الخولي ص١٥.

(١٦) انظر في وضع المفاضلة بين العلوم: إحياء علوم الدين، الغزالي، ١٧/١.

(١٧) انظر في الموضوع: تاريخ اللغات السامية ص١٢٧، ١٣٤، تاريخ العرب ص١١١.

(١٨) انظر في موضوع النقلة من اللغات إلى اللسان العربي، الفهرست ص٣٤٠، عيون الأنباء، ابن أبي أصيبعة ص٢٧٥.

(١٩) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢١٧/١.

(٢٠) طبقات ابن سعد ٣٩٧/٥، وجامع الأصول، ابن الأثير حديث رقم (٧٧٠٢).

(٢١) طبقات ابن سعد ٤٦٧/٥.

(٢٢) طبقات ابن سعد ٥٤٣/٥.

(٢٣) أخبار مكة. الأزرقي ص٣٣.

(٢٤) تاريخ الطبري ٣٩٩/٢.

(٢٥) كتاب العين ٢٠٥/١.

(٢٦) تأويل مشكل القرآن. ابن قتيبة ص٥٧.

(٢٧) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ابن الجوزي، ص١٩٥.

(٢٨) البداية والنهاية، ابن كثير القرشي، ١٨٠/٢.

(٢٩) انظر مجمل هذا الروايات في: الفهرست ص٦، الصاحبي، ابن فارس٣٤، الروض الأنف، السهيلي ١٣/١، صبح الأعشى ٣٩٠/٢.

(٣٠) انظر في موضوع التقويم عند العرب: الاثار الباقية، البيروني ص٦٣، المزهر، السيوطي، ٣٤٢/٢.

(٣١) انظر الروايات في: طبقات ابن سعد ٥٠/١، الأخبار الطوال: الدينوري ص٣، التنبيه والاشراف ص٦٩، شذرات الذهب، ابن العماد ٢١٢/٢.

(٣٢) الفهرست ص٤٤٥.

(٣٣) انظر في موضوع العلوم عند العرب والمسلمين «تاريخ العرب» فصل التقدم العلمي والأدبي عند العرب ص٤٣٢.

(٣٤) انظر في الموضوع: مقالة النحو العربي وأثره في نشوء النحو العبري. محمد حسن ابراهيم في المورد، مج٣، ع٢، ١٩٧٣. ص٥٩، ومقالة اللغة العربية بين اللغات السامية. أحمد السايح، مجلة اللسان العربي مج٧ ج١ ص٣٣، والأثر العربي في الفكر اليهودي. ابراهيم هنداوي ص٨٣، والساميون ولغاتهم، حسن ظاظا ص٦٤.

(٣٥) الإحكام في أصول الأحكام. ابن حزم ٣٢/١.

(٣٦) رسائل ابن حزم. ت. احسان عباس ص٥١. وبالإمكان قراءة النص مباشرة في سفر الخروج ١٣/٣٢.

(٣٧) تفسير القرطبي ٨٧/١٥، ومادة زقم في معجم اللسان ومعجم التهذيب.
(٣٨) تفسير الكشاف ٢٦٨/٤، ومادة زيتون في معجم التهذيب، وتأويل مشكل القرآن ص٢٣٢.
(٣٩) التحبير للسيوطي ص٣٩٠.
(٤٠) تفسير القرطبي ٣٨٣/١، والتحبير ص٣٩٠، والتهذيب واللسان مادة اللفظة.
(٤١) تفسير القرطبي ٨٩/١٩، واللسان في مادة اللفظة.
(٤٢) تفسير القرطبي ٣٩٥/١ واللسان، مادة «موسى».
(٤٣) تفسير القرطبي ٣٩٥/١ واللسان، مادة «نجل».
(٤٤) تفسير القرطبي ٣٣١/١.
(٤٥) تفسير القرطبي ٣٣٤/٢ والتحبير، السيوطي ص٣٨٦.
(٤٦) انظر مادة «قلم» في الجمهرة والتهذيب واللسان.
(٤٧) انظر مادة «برطق» في الجمهرة والتهذيب واللسان.
(٤٨) اللسان، مادة «غسق» والمهذب للسيوطي ص٩٨.
(٤٩) اللسان، مادة «برخ» والجمهرة والتهذيب.
(٥٠) أخبار مكة ص٢٨١.
(٥١) خزانة الأدب ٣٤١/١٠.
(٥٢) خزانة الأدب ٣٤١/١٠.
(٥٣) حياة الحيوان، الدميري ٣٢٨/١.
(٥٤) معجم الجمهرة مادة سكن.
(٥٥) الكنى والأسماء، الدولابي ٢٢/٢.
(٥٦) معجم اللسان مادة: أرس.
(٥٧) معجم اللسان مادة نطر.
(٥٨) معجم اللسان مادة (حزرق).
(٥٩) مروج الذهب ٢٣٨/١، الفهرست ص١٨.
(٦٠) أحسن التقاسيم، المقدسي ص٦٢٨.
(٦١) التنبيه والإشراف ص٦٩.
(٦٢) التنبيه والإشراف ص٣٤.
(٦٣) انظر في لحن هؤلاء المغاليق: البيان والتبيين ٣٩/١، ٧٢. ١٦١.
(٦٤) انظر في لحن هؤلاء الشخوص، خزانة الأدب ٥٤٦/٩. والحاشية التالية (٦٥).
(٦٥) انظر هذه العيوب النطقية في: البيان والتبيين ٢١٢/٣، درة الغواص ٢٤٩، المزهر ١٢٢/١، خزانة الأدب ٥٩٦/٤، ولحن العامة في ضوء الدراسات الحديثة. عبدالعزيز مطر ص٢٤١، وفي اللهجات العربية، ابراهيم أنيس ص٩٢.
(٦٦) انظر في الموضوع: لهجات اليمن قديماً وحديثاً، أحمد حسين شرف الدين ص٤١، من لهجات المهرة، علي بن محسن ص٥٠ واللغات اليمانية وصلتها بالفصحى، اسماعيل الأكوع، مقالة بمجلة

ريدان ٤/١٩٨١ ص١٧.

(٦٧) مروج الذهب ص٧٨.

(٦٨) اللسان مادة عمم.

(٦٩) المزهر ٢٢٢/٢ ومعجم اللسان مادة بأس.

(٧٠) صبح الأعشى ١٩٦/١.

(٧١) المزهر ٢٥٧/١، اللسان مادة وثب، الصاحبي ص٥١.

(٧٢) معجم اللسان مادة فرسك.

(٧٣) صفة جزيرة العرب ص٢٧٨.

(٧٤) المقابسات ص٢٩٣.

(٧٥) الصيدنة ص١٢، ويمكن رؤية نصوص اخرى في شرف العربية ومدحها في: الرسالة، الشافعي ص٤١، اعجاز القرآن، الباقلاني ص١١٨، صبح الأعشى ١٨٣/١، مقدمة التحقيق للمعرب، الجواليقي ص١٣.

(٧٦) المثل السائر ٢٠٦/١.